

الأستاذ الدكتور عبد المنعم طوعي بشناتي

رئيس قسم اللغة العربية وآدابها والشرعة والدراسات الإسلامية

جامعة الجنان - طرابلس - لبنان

الانسجام الصوتي دراسة تحليلية في اللغة العربية

الحلقة الأولى

مقدمة

الحمد لله رب العالمين الذي أنزل على عبده الكتاب بلسان عربي مبين ولم يجعل له عوجاً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أفصح العرب بيد أنه من قريش، صلى الله عليه وسلم.

أما بعد:

فلما كان حبي وتفاعلي شديداً في علم مقارنة الأصوات بعضها ببعض انطلاقاً من التطور الذي حدث عند علماء اللغة المحدثين في توضيح مخارج الحروف وصفات الحروف، أردت أن أشارك في ذلك، فقامت بموازنة صوتية بين القديم (التجويد) والحديث (الأصوات) وحاولت أن أشارك أهل العلم والرأي في إبراز خصائص وأسرار اللغة العربية الحبيبة.

وقد قسّمت البحث إلى خمسة فصول، وتضمّنت العديد من الموضوعات على الشكل الآتي:

الفصل الأول:

ويشتمل على المطالب الآتية:

المطلب الأول: التألف.

المطلب الثاني: المخارج والأصوات اللغوية.

المطلب الثالث: حقيقة تألف الأصوات.

المطلب الرابع: درجات استعمال الأصوات.

المطلب الخامس: أكثر الأصوات تأثراً وانسجاماً.

المطلب السادس: أنواع اللفظ المهمل.

المطلب السابع: التأثير والانسجام.

المطلب الثامن: (أ) النون وانسجامها الصوتي.

(ب) الميم وانسجامها الصوتي.

الفصل الثاني:

ويشتمل على المطالب الآتية:

المطلب الأول: أثر التناسب الصوتي في التقاء الساكنين.

المطلب الثاني: الانسجام الصوتي وأثره في حذف الأصوات.

المطلب الثالث: أثر الانسجام الصوتي في زيادة الأصوات.

الفصل الثالث:

ويشتمل على المطالب الآتية:

المطلب الأول: أثر الحركات في التناسب الصوتي.

المطلب الثاني: أثر الانسجام الصوتي في صفات الأصوات.

المطلب الثالث: تناسب الأصوات في اللسان الفصيح.

تمهيد

السامع لنطق الأصوات وعلاقتها مع بعضها البعض يظهر له أن النطق لا يساير قاعدة معروفة تراعى لتألف الأصوات فتصبح ألفاظاً مفهومة وجمالاً ذات معانٍ، وإنما نظام نطق الأصوات أكبر من أن تحكمه قاعدة، فهذا النظام يدركه الجاهل كما يعلمه العالم، ويفهمه الصغير ويراعيه مع الكبير.

فالكلمة مجموعة من الأصوات المؤتلفة -في أي لغة- ومعناها معروف عند أصحابها، وأى تغيير يحدث في الكلمة حَكَمَتَه قاعدة بنية الكلمة -علم الصرف- أو كان هذا التغيير لا يحكم من قبل قاعدة، فإن الكلمة تؤدي في اللغة الواحدة على عدة أشكال، سواء كان ذلك عن طريق تعدد الاشتقاق، أو بسبب اختلاف اللهجات.

وتتميز اللغة العربية بأصواتها الخفيفة على اللسان والمؤتلفة في الكلمة، فقد صَفَّى فصحاء العرب لغتهم من الشوائب والعجمة واللكنة، وتمثلت اللغة في أسمى صورة لغوية في القرآن الكريم. واللغة العربية عبقرية في تنعيمها ونبرها ومقاطعها، وموحية في أدائها، فيها يتنافس الأدباء والبلاغيون، ويتلاعبون في المعاني باستعمالهم أصواتهم المتنوعة بطريقة التنعيم أو الأداء وغير ذلك.

وأصوات اللغة العربية الساكنة واللين المعروفة، بحاجة لدراسة حديثة دقيقة، والتعرف على آراء العلماء القدامى فيها، ووصلهم بالعلوم اللغوية الحديثة، فقد قدّم سيبويه في كتابه العريق وابن جني في سر صناعة الإعراب وغيرهما، العديد من الآراء والنظريات الصوتية الجديرة بالوقوف عندها طويلاً.

ودراسة دقائق اللغة العربية وأسرارها، تبين متانتها وفصاحتها وأشكال نطقها الصحيح، وتصحح الأخطاء التي تقع في بنية الكلمة وتعود بالصوت العربي إلى الأصالة، وتعتني به بإشاعة نطقه سليماً وتعريف بالعلاقة بين صوت وآخر، وترفض الأصوات الرديئة والقبیحة وتقوي اللهجات الفصيحة، قال سيبويه: «وهذه الحروف التي تَمَّتْها إثني وأربعين جيداً ورديئاً أصلها التسعة والعشرون، لا تتبين إلا بالمشافهة»^(١)

وعناية البحوث المتخصصة باللغة العربية وأصواتها تبين الأصوات التي تـقـلـب إلى ما جاورها، أو حكم إظهارها أو إدغامها، وتظهر الأصوات المتقاربة المخارج وتأثرها ببعضها وتاسبها وانسجامها.

وما قاله المحدثون^(١) في الطول الزمني للصوت، والفرق في المدة الزمنية بين الأصوات، والذي عرف بظاهرة «الكمية» فصل الحديث فيه ابن جني، فقال: «اعلم أن الحركات أبعاد حروف المد واللين، وهي الألف والياء والواو، فكما أن هذه الحروف ثلاثة^(٢)، فكذلك الحركات ثلاثة...»، فمثل هذه الموضوعات تعدّ أحدث وأهمّ الموضوعات في الاتجاه العلمي الحديث. فوجب الخوض مع علماء الأصوات في العصر الحديث لإنصاف آراء العلماء القدامى، وإظهار العلوم التي تحدثوا بها.

الفصل الأول:

المطلب الأول: التآلف.

المطلب الثاني: المخارج والأصوات اللغوية.

المطلب الثالث: حقيقة تآلف الأصوات.

المطلب الرابع: درجات استعمال الأصوات.

المطلب الخامس: أكثر الأصوات تأثراً وانسجاماً.

المطلب السادس: أنواع اللفظ المهمل.

المطلب السابع: التأثير والانسجام.

المطلب الثامن: أ) النون وانسجامها الصوتي.

ب) الميم وانسجامها الصوتي.

المطلب الأول

«التآلف»

الحروف عندما تجتمع وتتركب مع بعضها تألف معاني محدّدة، «والتأليف حقيقة في الأجسام، مجاز في الحروف»^(٣) وإذا كان ضمّ الحروف إلى بعضها يؤدي معنى فإنه يوجد فرق بين كلمة «تأليف» و«تركيب» و: «الفرق بين التأليف والتركيب أنه لا بدّ في التأليف من نسبة تحصل فائدة تامة مع التركيب، فالمركب أعمّ من المؤلف»^(٤)

١- انظر مثلاً: «اللغة العربية ص ٣٠٠».

٢- انظر سر صناعة الإعراب ١٧/١.

٣- الأشباه والنظائر ١١١/١.

٤- الأشباه والنظائر ١١١/١.

والألفاظ تستساغ عند تألف حروفها وانسجام أصواتها، و«التأليف... من الألفة وهي الملائمة، أصله في الأجسام، وأطلق على الألفاظ المتتالية تشبيها بها»^(١).

وإذا تنافرت الحروف نطقاً فلا تألف في اللفظ الواحد، وينبذ الناطق الأصوات التي يكون تركيبها غير منسجم.

وانسجام الأحرف وترتيبها وتباعدها وتقاربها من أسرار اللغة العربيّة الدقيقة ظاهرة تتطلب الدراسة. وقد أشار الى ذلك ابن منظور بقوله: «وأما تقارب بعضها من بعض وتباعدها، فإن لها سرّاً، في النطق، يكشفه من تعناه»^(٢).

وحقيقة الكلام: كلمات مؤلفة دالة على معنى، أو أنّ الكلام ما سمع وفهم. والقولان متقاربان: لأن المسموع المفهوم، يكون بحروف مؤلفة تدل على معنى^(٣).

ومن اتبع طريقة التقليبات في التأليف المعجمي، شرّح الألفاظ المستعملة وما كان مهماً لم يشر إليه لأنه لا يعتبر أصواتاً متألّفة أولها معنى، ومن نظر الى عناوين الأبواب في «العين» للخليل وغيره يجد ذلك جليّاً.

المطلب الثاني

«المخارج والأصوات اللغويّة»

علماء اللغة القدامى ألفوا معاجمهم على طريقة التقليبات الصوتيّة، وكان أوّل من ابتدع هذه الفكرة الخليل بن أحمد، وقد ربّط الأصوات اللغويّة «الحروف» بحسب مخارج الأصوات^(٤)، الحلقية فاقصى اللسان وأوسطه وطرفه، ثم الشفوية فالجوفية، فكان تقسيم الأصوات على المخارج على الشكل الآتي^(٥):

١- الأصوات الحلقية: ه ح ع غ خ

٢- الأصوات اللسانية:

أ- أصوات أقصى اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى: ق ك و^(٦).

١- الأشباه والنظائر ١/ ١١١.

٢- لسان العرب ١/ ١٤.

٣- انظر الصاحبى ٨٧.

٤- انظر ترتيبها في لسان العرب ١/ ١٤.

٥- انظر الأصوات اللغوية. ص ٤٥ وما بعدها.

٦- انظر مخرج الواو. الأصوات اللغوية ص ٤٣. ويرى الدكتور رمضان عبد التواب أن صوت الواو شفوي - (انظر المدخل إلى علم

اللغة ص ١٦، ٣١) - متابعا في ذلك سيبويه.

ب- أصوات وسط اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى: ج ش ي.

ج- أصوات طرف اللسان مع أطراف الثنايا السفلى: ص س ز.

د- أصوات طرف اللسان مع أطراف الثنايا العليا: ط د ت ض.

ه- أصوات اللسان مع أطراف الثنايا العليا: ظ ذ ث.

و- طرف اللسان مع اللثة العليا: ر ل ن.

٣- الحروف الشفوية: ف ب م.

٤- الحروف الجوفية: و، ي، الألف.

فالأصوات الأخيرة «الجوفية»: أصوات اللين» سميت جوفاً لأنها تخرج من الجوف فلا تخرج من مدرجة من مدارج الحلق، ولا مدارج اللهاة ولا مدارج اللسان وهي في الهواء، فليس لها حيّز تنسب إليه إلا الجوف^(١).

والأصوات ذات المخارج الموحدة تتقارب وتتشابه به في النطق حتى يقترب كل صوت من الآخر اقتراباً عجيباً، «ولولا بحة في الحاء لأشبهت العين لقرب مخرجها منها ثم الهاء، ولولا هتة في الهاء، وقال مرة أخرى -أي الخليل- ههة في الهاء لأشبهت الحاء لقرب مخرجها منها»^(٢) وكان ابن جني يصف الأصوات التي مخرجها واحد بأنها أخوة: فيقول: «ومنه العسف والأسف، والعين أخت الهمزة»^(٣).

وكان ابن جني يستنتج من تقارب الأصوات من بعضها بالمخرج بتوحد المعنى، وعقد لذلك باباً سماه «باب في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني» ومما قال فيه: «... فالراء أخت اللام والعَمَلان متقاربان. وعليه قالوا فيها: الجرقة، وهي من (ج ر ف) وهي أخت جلفت القلم إذا أجزت جلفته وهذا من (ج ل ف)^(٤) ويقول أيضاً: «وذاك من (س ح ل) وهذا من (ص ه ل) والصاد أخت السين، كما أن الهاء أخت الحاء ونحو منه قولهم (سحل) في الصوت و (زحر) والسين أخت الزاي، كما أن اللام أخت الراء»^(٥).

وقد جمع ابن جني العديد من الألفاظ مبيناً أنَّ سبب تقارب المعاني تقارب الأصوات وقال: «وقالوا:

١- اللسان ١/ ١٣.

٢- اللسان ١/ ١٣.

٣- الخصائص ٢/ ١٤٦.

٤- الخصائص ٢/ ١٤٧.

٥- الخصائص ٢/ ١٤٩. وانظر ما بعدها.

صال يصول، كما قالوا: سار يسور»^(١) ويرى أنهم تجاوزوا الحرف الواحد إلى أن ضارعوا بالأصول الثلاثة الفاء والعين واللام، فقالوا: عَصَرَ الشيء، وقالوا: أَزَلَّه، إذا حبسه، والعصر ضرب من الحبس، وذلك من (ع ص ر) وهذا من (أ ز ل) والعين أخت الهمزة، والصاد أخت الزاي والراء أخت اللام^(٢). ومثّل بالعديد من الكلمات مثل: "أ ز م - و - ص ب) و (س ل ب - و - ص ر ف) و(غ د ر - و خ ت ل) و (ز أ ر - و س ع ل)^(٣) وغيرها.

فمن ذلك أن الحرفين المتقاربين في المخرج يستعمل أحدهما مكان الآخر ويصعب علينا أن نحدّد الكلمة أصلية الحروف، إذ اعتبر أهل اللغة أن الكلّ أصل «ومن ذلك سكر طبرزل، وطبرزن: هما متساويان في الاستعمال فلست بأن تجعل أحدهما أصلاً لصاحبه أولى منك بحمله على ضده»^(٤) وسبب جواز جعل جميع أحرف: طبرزل وطبرزن أصلية أن مخرجهما واحد من طرف اللسان مع اللثة العليا. «ومن ذلك قولهم: هتلت السماء، وهتنت. أهما أصلان؟ ألا تراهما متساويين في التصرف، يقولون: هتنت السماء تهتن تهتاناً، وهتلت تهتل تهتالاً، وهي سحائب هتن وهتل»^(٥) ولتقارب مخارج الأصوات كانوا يبدلون صوتاً مكان آخر، ولمجاورة مخرج الميم الشفوي مخرج النون من طرف اللسان مع اللثة العليا، جاز أن يحل صوت مكان آخر «ومن ذلك ما حكاه الأصمعي من قولهم: دَهَمَجَ البعير يدهمج دَهْمَجَةً، ودهنج يدهنج دَهْنَجَةً»^(٦) وعلى ذلك قولهم: ما قام زيد بل عمرو، وبْنُ عمرو، فالنون بدل من اللام، ألا ترى إلى كثرة استعمال (بل) وقلة استعمال (بن) والحكم على الأكثر لا على الأقل... وكذلك قولهم رجل (خامل) و (خامن) النون فيه بدل من اللام، ألا ترى أنه أكثر... وكذلك قولهم قام زيد فَمُ عمرو، الفاء بدل من التاء في ثم، وقال الأصمعي عن السحائب: «يأتين قبل الصيف بيض منتصبان في السماء: بنات مَخَر، وبنات بَخَر»^(٧).

المطلب الثالث

«حقيقة تألف الأصوات»

ترتيب أصوات اللغة العربية وانسجامها على الشكل المعهود لنا يبيّن سلاستها ولطفها، ومن هذا

١- الخصائص ١٥٠/٢.

٢- الخصائص ١٥٠/٢.

٣- انظر الخصائص ١٥٠/٢. وما بعدها.

٤- الخصائص ٨٢/٢.

٥- الخصائص ٨٢/٢.

٦- الخصائص ٨٣/٢.

٧- الخصائص ٨٤/٢، ٨٥ وانظر بقية الامثلة فيما بعد ذلك

الباب ظهر في علم البلاغة «التعقيد اللفظي» للأصوات المتنافرة، وقد ذكر ابن جني بعضاً من هذه الالفاظ، نحو: هع، وقج، وكق،^(١) فلم نجد في المعاجم ألفاظاً تبدأ بالقاف وتثنى بالجيم، أو تبدأ بالكاف ثم القاف، أو الهاء ثم العين، اللهم إلا كلمة شنعاء منكراً ذكرها ابن دريد، قال الخليل: سمعنا كلمة شنعاء (الهُعْخُع) فانكرنا تأليفها، سئل أعرابي عن ناقة له، فقال: تركتها ترعى الهُعْخُع. فسألنا الثقات من علمائنا. فكروها ذلك، فقالوا نعرف الخُعْخُع، فهذا أقرب إلى التأليف^(٢).

وذكر ابن دريد في مقدمته مخارج الحروف وأجناسها وبين صفاتها ثم قال: «إنما عرفتكم المجاري لتعرف ما يأتلف منها مما لا يأتلف، فإذا جاءتك كلمة مبنية من حروف لا تؤلف مثلها العرب عرفت موضع الدخيل منها فرددتها غير هائب لها»^(٣).

فيكون سبب تنافر الحروف قرب المخارج أو توحيدها، ولهذا «إذا تقاربت مخارجها كانت أثقل على اللسان منها إذا تباعدت لأنك إذا استعملت اللسان في حروف الحلق دون حروف الفم ودون حروف الذلاقة كلفته جرساً واحداً»^(٤).

فكأنك ترفع لسانك مرة واحدة لتتلق حرفين متاليين من مخرج واحد، أو ترفع لسانك لتتلق حرفاً، ثم تفصل اللسان عن الموضع وتعيده مرة أخرى، لكن هذا يأتلف في الثنائي وقليلاً في الثلاثي، وأصعبها حروف الحلق، ويشترطون لتألف صوتين مخرجهما واحد أن يقدم الأقوى. ومن ذلك في الثنائي: أخ. واجتمعا في الثلاثي في: أحد، وأهل، وعهد، ونزع بلا فاصلة. لكنهم ابتدؤا بالأقوى من الحرفين وأخروا الصوت الألين. كما قالوا: «ورل ووتد» فبدأوا بالتاء مع الدال، وبالراء مع اللام، فذق التاء والدال فإنك تجد التاء تنقطع بجرس قوي، وتجد الدال تنقطع بجرس لين، وكذلك الراء، تنقطع بجرس قوي وتجد اللام، تنقطع بغنة^(٥).

وذكر ابن جني الأصوات الحلقية أنها لا تألف لتقارب مخارجها، فإن جمع بين اثنين منها قدم الأقوى على الأضعف نحو: أهل، واحد، وأخ، وعهد، وعهر^(٦). ويرى ابن جني أنهم إنما يقدمون الأقوى من المتقاربين من قبل أن جمع المتقاربين يثقل على النفس، فلمّا اعتزموا النطق بهما قدّموا أقواهما لأمرين: أحدهما: أن رتبة الأقوى أبداً أسبق وأعلى، والآخر: أنهم إنما يقدمون

١- الخصائص ١/٦٤.

٢- الجمهرة ١/٩.

٣- الجمهرة ١/٨-٩.

٤- الجمهرة ١/٩.

٥- انظر الجمهرة ١/٩.

٦- الخصائص ١/٥٤.

الأثقل ويؤخّرون الأخفّ من قبل أنّ المتكلّم في أوّل نطقه أقوى نفساً وأظهر نشاطاً، فقدّم أثقل الحرفين، وهو على أجمل الحالين^(١).

ومن ملاحظة هذه النصوص نستنتج أن حروف الحلق لها أحوال خاصة فتألف بعضها ضمن شروط:

١- أن العين تألف في كلمة واحدة مع الخاء، بدون فاصل بشرط تقديم الحرف الأقوى وهو الخاء، مثل: نخع وبخع.

٢- إذا كانت الهمزة أصلية في كلمة فإنّها تألف مع الحاء والحاء والهاء، ومزيدة مع العين والغين، مثل: أعطى وأعطش. وشرط ذلك أن تقدّم على الأحرف الحلقية الثلاث الأصلية، مثل أحد، أخذ، أهل.

٣- ائتلاف الهاء مع العين، دون فاصلة، وتقدّم العين على الهاء، مثل: عهد، عهر^(٢).

أما ائتلاف العين والغين، أو حاء أو هاء أو غين فهذا وما أشبهه لا يأتلف، قاله ابن فارس^(٣). وكذا العين مع الخاء دون فواصل، واحتمل في (خضع) و (خدع) وهو حسن لفصل ما بين الخاء والعين بالذال، وإن قلبت الحروف قبح^(٤)، ولا يحتمل الغين مع الخاء دون فاصل.

وأصوات أقصى اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى: القاف والكاف، لها أحوال خاصة، ويلحق بها: الجيم لقرب مخرج «الجيم» وسط اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى، من مخرج القاف والكاف، ولكن من أوّل وسط اللسان من جهة أقصاه، ولذلك لا تتجاوز أبداً الأصوات: ق، ك ج. فلا يأتلف لفظ في: قج، وجق، وكق، وفك، وجك^(٥). وما هو على ذلك دون فاصل فهو من الأعجمي، وهذا النوع من الأصوات واضح نفور الحسّ منه.

أمّا أصوات وسط اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى: «الجيم، والشين» فإنّهم جمعوا بين الشين والجيم في الشجّ والجشّ^(٦) وشجر وشجيّ وجشأ، لكن الأكثر تقدم الشين على الجيم. وسبب احتمال ائتلافهما، أن مخرج الجيم من وسط اللسان صرفاً، أمّا مخرج الشين فإن مخرجها بين أوّل اللسان ووسطه^(٧).

١- انظر الخصائص ٥٥/١.

٢- انظر لسان العرب ١٤/١.

٣- الصاحبي ص ٨٧.

٤- انظر الجهرة ١٢/١.

٥- الخصائص ٥٤/١.

٦- الجهرة ٧/١.

٧- انظر الأصوات اللغوية ص ٧٧.

وأصوات طرف اللسان مع أصول الثنايا السفلى: الصاد، السين، الزاي. وهي أصوات صفيريّة لا تألف ولا تجتمع في كلمة واحدة، وهي لا تتركب سواء تقدمت أو تأخرت، وهذه الأصوات لا تتركب مع الثاء والضاد والطاء^(١). فلم يسمع: سَصّ، صَتّ، ضَتّ، ثَضّ، ذَتّ. فالصاد من أصوات طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا. والطاء من أصوات اللسان مع أطراف الثنايا العليا. والأصوات الشفوية: ف، ب، م. لا تتركب مع بعضها إلا بفاصل.

قال ابن فارس: الباء من حروف الشفة، ولذلك لا تألف مع الفاء والميم، أما الفاء فلا تقارنها بباء متقدمة ولا متأخرة، وأما الميم فلا تتقدم على الباء ملاصقة لها بوجه ومتأخرة كذلك، إلا في قولنا: «شيم» وقد يدخل بينهما دخيل في مثل «عبام» و«شيام» وهي على الأحوال يقلّ تألفها معها^(٢).

وعلماء اللغة القدامى أدركوا هذه المسائل، فقال ابن دريد: «اعلم، أنّ أحسن الأبنية عندهم أن يبنوا بامتزاج الحروف المتباعدة^(٣) فجاء تألف أكثر الأحرف ما تباعدت مخارجه».

المطلب الرابع

«درجات استعمال الأصوات»

التوسّع في استعمال الأصوات في الكلام له درجات، فبعضها يستعمل بكثرة، وبعض الأحرف يقل استعمالها، وذكر ابن دريد: أنّ أكثر الحروف استعمالاً عند العرب: الواو والياء والهمزة^(٤). والذي قاله ابن دريد أيده ابن منظور، ونبّه إلى أنّه من الحروف ما يتكرر ويكثر في الكلام استعماله، وهو: أ ل م هـ و ي ن^(٥).

وبعض الأحرف يكون استعمالها أقل من الأصوات السابقة ويكون تكرارها دون ذلك وهي: ر ع ف ت ب ك د س ق ح ج^(٦).

ومنهما ما يكون استعماله أقل من المجموعتين السابقتين، لثقل في اللسان عند استعمالها، وهي: ظ غ ط ز ث خ ض ش ص ذ^(٧).

١- انظر اللسان ١ / ١٤، الخصائص ١ / ٦٢ - ٦٣.

٢- الصاجي ص ١٣١.

٣- الجمهرة ١ / ١١.

٤- الجمهرة ١ / ١٢.

٥- لسان العرب ١ / ١٤.

٦- انظر اللسان ١ / ١٤.

٧- انظر اللسان ١ / ١٤.

أما حروف الذلاقة: ف ر م ن ل ب. فالظاهر أنها من الأحرف التي لا يخلو منها رباعيٌّ أو خماسيٌّ أصليٌّ في الأسماء، وهى متقاربة المخارج: الفاء والميم والباء، شفوية، والراء والنون واللام، بين أسلة اللسان إلى مقدمة الغار الأعلى، وهذه سمّيت بحروف الذلاقة لأن عملها في طرف اللسان، وطرف كل شيء ذلقه وهي أخفّ الحروف، وأحسنها امتزاجاً بغيرها^(١) وقد جعلت هذه الأحرف شرطاً لعربيّة الرباعي والخماسي، وأما خلو الرباعي منها فقليل جداً، لكن تحسّنه دخول السين عليه، مثل: عسجد، وذلك أن السين ليّنه وجرسها من جوهر الغنة^(٢)، وهي قريبة من صوت «الراء والنون واللام» لأن هذه الأصوات ممتزجات بصوت الغنة، والغنة صوت من أصوات الخيشوم، والخيشوم مركب فوق الغار الأعلى وإليه تسمو هذه الأصوات^(٣).

المطلب الخامس

«أكثر الأصوات تأثراً وانسجاماً»

يعدّ صوت اللام أكثر الأصوات الساكنة شيوعاً في الفصحى، ونسبة شيوعها ١٢٧ مرة في كل ألف من الأصوات الساكنة تقريباً. وهذه النسبة تعتبر عالية. والأصوات التي يشيع استعمالها تكون أكثر تعرضاً للتطور الصوتي^(٤).

فصوت «اللام» يتأثر بما لم يتأثر به غيره وكان نوعاً فريداً من الأصوات لكثرة شيوعه، وقد سمّي المحدثون العديد من الأصوات بالأحرف الشمسيّة، حين النطق بها مع لام التعريف، إذ وجد القدامى أنّ اللام تقنى وتتأثر بثلاثة عشر صوتاً لغويّاً وتسجّم معها تماماً.

أمّا الأصوات التي تقنى فيها «اللام» هي: الراء، النون، الدال، الضاد، التاء، الطاء، الزاي، السين، الصاد، الشين، وما دونها تسمّى بالأحرف القمرية.

ويلاحظ أن جميع الأصوات الشمسيّة مخرجها من طرف اللسان مع شيء آخر. إلا الشين فهي من وسط اللسان وأقرب الأصوات إلى مجموعة طرف اللسان، ولأن الشين هو الصوت الوحيد الخارج عن المجموعة الشمسيّة سمّيت به هذه المجموعة: «بالأحرف الشمسيّة» تأليفاً وتقوية له.

يلاحظ أنّ الأصوات المسمّاة بالقمرية والمجموعة في قولنا: «إبغ حجك وخف عقيمه» هي أصوات شفوية وحلقية وأقصى اللسان ووسطه ولكن من ناحية أقصى اللسان، ولا يوجد فيها صوت من طرف اللسان أو يقارب الطرف. ولعلّ صفة التفشّي لصوت الشين تقترب بها إلى مخرج اللام.

١- انظر الجهرة ٧/١.

٢- انظر الجهرة ١١/١.

٣- انظر الجهرة ٧/١.

٤- انظر الأصوات اللغوية ص ٢٠٢.

أعطاهما مبرراً فناء اللام بها، فلهذا عند النطق بلام التعريف ويكون بعدها «الشين» تتأثر اللام بما بعدها وتقفى بها.

والمحدثون من علماء الأصوات اللغوية قرّروا أنه قد يتجاوز صوتان لغويّان ويتأثر الأول منهما بالثاني، واصطلحوا على تسمية هذا النوع من التأثير «بالرجعي»^(١).

المطلب السادس

«أنواع اللفظ المهمل»

ذهب علماء اللغة عند حصر اللغة على طريقة التقليلات أن يشرحوا المستعمل ويشيروا إلى أنه يوجد بعض الجذور مهملة، فاللفظ المهمل عن تقليلات مستعمله هو: الذي لا تدل حروفه على معنى، وكان الخليل في «العين» يذكر الجذور المستعملة ثم يقول: والباقي مهمل.

أما سبب إهمال بعض الجذور فإنه يرجع الى سببين:

الأول: ما كانت حروفه لا تأتلف وهو الذي قال فيه ابن فارس: ضرب لا يجوز ائتلاف حروفه في كلام العرب بته، وذلك كجيم تؤلف مع كاف، أو كاف تقدّم على جيم، وكعين مع غين، أو هاء مع هاء أو غين^(٢).

الثاني: من الألفاظ المهمة، لا يكون سبب إهمالها تنافر حروفها أو تقارب مخارجها، ولا يوجد موانع صوتية، ولكن السبب أن العرب لم تستعمل كل ما هو يأتلف من الأحرف، فليس من الضروري أن تستعمل جميع تقليلات المادة اللغوية إن استعمل منها بعضها. وقد أشار لهذا ابن فارس فقال: والضرب الآخر: ما يجوز تألف حروفه، لكن العرب لم تقل عليه، وذلك كإرادة مريد أن تقول: «عضخ» فهذا يجوز تألفه وليس بالنافر، ألا تراهم قد قالوا في الأحرف الثلاثة: «خضع» لكن العرب لم تقل: «عضخ»^(٣).

المطلب السابع

«التأثر والانسجام»

الأصوات اللغوية تتأثر بما جاورها من أصوات، وظاهرة قلب الأصوات الساكنة بسبب التأثر في اللغة العربية إلى أصوات ساكنة أخرى شائعة في الفصحى، «ويمكن أن يسمى هذا التأثر بالانسجام الصوتي بين أصوات اللغة»^(٤).

١- الأصوات اللغوية ص ١٨٠.

٢- الصاحبى ص ٨٧.

٣- الصاحبى ص ٨٧.

٤- الأصوات اللغوية ص ١٧٨.

وخوفاً من تأثر الأصوات الساكنة ببعضها الآخر وتطور الألسن، وضع علماء اللغة قوانين خاصة في إباحة القلب، أو منع بعض الأصوات من التأثر، لئلا تتغير بعض صفات الأصوات، «فلحرصهم على الأصوات الشديدة المجهورة التي تعرّضت للهمس في بعض اللهجات الكلامية، سمّوها أصوات القلقلة، وقلقلوها في نطقهم ليأمنوا بهذا من همسها»^(١).

وتأثر الأصوات ببعضها البعض، هو تقريب صوت من صوت آخر، وهو الإدغام المألوف بين المتماثلين، وسمّاه ابن جنّي: «الإدغام الأصغر»^(٢).

ومن ذلك أن تقع فاء (افتعل) صاداً أو ضاداً، أو طاءً أو ظاءً، فتقلب لها ياؤه طاءً. وذلك نحو اصطبر، واضطرب، واطرد، واطلطم. فهذا تقريب صوت من صوت من غير إدغام^(٣).

ومن ذلك أن تقع فاء (افتعل) زايّاً أو دالّاً أو ذالّاً، فتقلب تاؤه لها دالّاً، كقولهم: ازدان، وادّعى (وادّكر واذدكر)^(٤).

ويرى ابن جنّي مثل هذا التماثل والانسجام يكون بين الصوت المقلوب عن الأصل وفيما قبله، فيقول: «فأما ادّعى... قلبت تاء ادّعى دالّاً، قلبها في ازدان، ثم وافقت فاءه المبدلة من التاء، فلم يكن من الإدغام بدّ»^(٥).

وأما اذدكر... أنه لما قلبت التاء دالاً لوقوع الدال قبلها صار إلى اذدكر، غير أنه أجريت الدال لقربها من الدال بالجهر مجرى الدال، فأوثر الإدغام لتضام الحرفين في الجهر فأدغم.

وإذا وقع صوت «السين» قبل صوت مستعلي فتقرب منه بقلبها صاداً. كقولهم في سقت: صقت وفي السوق: الصوق، وفي سبقت: صبقت، وفي سَمَلَقَ وسَوِيق: صَمَلَقَ وصَوِيق، وفي سَالِغَ وسَاخَطَ: صَالِغَ وصَاخَطَ، وفي سقر: صقر. وفي مسالِخٍ مصالِخ^(٦).

ومنه تقريب الحرف من الحرف نحو قولهم: مصدر: مزدّر، وفي التصدير: التزدير، وعليه قول العرب في المثل: (لم يحرم من فُرْدَلَه) أصله فُصِدَ له، ثم أسكنت العين، على قولهم في: ضُرب: ضُرب... فصار تقديره فُصِدَ له، فلما أسكنت الصاد فُضِّعَتْ به وجاورت الصاد - وهي مهموسة - الدال - وهي مجهورة - قربت منها بأن أشمّت شيئاً من لفظ الزاي المقاربة للدال بالجهر^(٧).

١- الأصوات اللغوية ص ١٧٩.

٢- انظر الخصائص ١٣٩/٢.

٣- انظر الخصائص ١٤١/٢.

٤- انظر الخصائص ١٤٢/٢.

٥- الخصائص ١٤٢/٢.

٦- الخصائص ١٤٣. ١٤٢/٢.

٧- انظر الخصائص ١٤٤/٢.

وسبب وقوع الإمالة في أصوات اللين إنما هو تقريب الصوت من الصوت وذلك نحو: عالم، وكتاب، وسعى، وقضى واستقضى، فقد قربت فتحة العين أو أميلت من عالم إلى كسرة اللام منه، بأن نَحَوْتُ بالفتحة نحو الكسرة، فأملت الألف نحو الياء، وكذلك سعى وقضى: فنَحَوْتُ بالألف نحو الياء التي انقلبت عنها.

والمحدثون من علماء الأصوات نظروا إلى مثل هذه المسائل، وقرروا أنه إذا تجاوز صوتان وتأثر الأول منهما بالثاني سمّي هذا التأثير «الرجعي» وإذا تأثر الصوت الثاني بالأول أطلقوا عليه التأثير «التقدمي»^(١) وهذه الظاهرة شائعة في اللغة العربية وغيرها من اللغات.

المطلب الثامن

(أ): «النون وانسجامها الصوتي»

لصوت النون الساكنة أحكام خاصة في علم التجويد بأحكام النون الساكنة، وتبنى أحكامها على قرب مخارج الأصوات وبعدها عن بقية الأصوات.

فاذا كان الصوت مخرجه بعيداً عن مخرج النون، فإنَّ تحقيقه واجب، مثل الأحرف الحلقية عندما تلتقي بصوت النون، مثل قولنا: «أنعمت» فإننا نلفظ النون محققة وظاهرة، وهو المعروف بالإظهار الحلقى، ومثله: «أنهار» «أنحر» «من آمن» ولبعد مخرج النون وهو: «طرف اللسان بأصول الثنايا العليا» من الأصوات الحلقية، فإنَّ النون الساكنة لا تتأثر بما جاورها منها، وتنطق النون خالصة من كل شائبة.

وتتأثر النون الساكنة بأصوات وسط اللسان وطرفه إذا جاورتها، أكثر مما لو جاورها أصوات أقصى اللسان، وإذا اجتمع قرب المخرج أو توحد مع النون أو مع صفات النون الصوت المجاور كان التأثير شديداً، لتصل درجة التأثير بالغناء التام.

فإنَّ الميم - وهي شفوية - إذا وليت النون الساكنة انقلبت الى ميم لقرب مخرج النون الساكنة من الميم، وهو الذي يطلق عليه «بالإقلاب».

وإذا كان الصوت يدغم مع صوت النون الساكن مع وجود دليل عليه مثل الغنة سمّي: إدغام بغنة، ويتمثل هذا الحكم إذا وليت الأصوات المجموعة في كلمة «ينمو» صوت النون الساكن.

أمّا إذا ولي صوت النون صوتاً له نفس صفات النون مع فوارق بسيطة وكان المخرج موحدًا، فإنَّ صوت النون يفنى فيما يليه تماماً، وهو الذي سماه علماء التجويد: بالإدغام بلاغنة. وهو إدغام كامل حيث تتأثر النون الساكنة بالصوت الذي يليها ولا ينطق بها القارئ.

١ - انظر الإصوات اللغوية ص ١٨٠.

فصوت «النون» و«الراء» و«اللام» مخرجها من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا، والأصوات الثلاثة «مجهورة متوسطة» وسمّي بعض العلماء هذه الأصوات «بالأصوات الذليّة»، ولنسبة وضوحها الصوتي، وأنها من أوضح الأصوات الساكنة في السمع^(١)، سمّيت أشباه أصوات اللين الساكنة، أضف إلى ذلك أنها من الإصوات المتوسطة، أما الميم والعين من الأصوات المتوسطة فليست متحدتا المخرج مع الأصوات الثلاثة.

وبين الإظهار والإدغام درجة اصطلاح القدماء على تسميتها بالإخفاء، وسمّي هذا الحكم بذلك، لأنّ الإخفاء محاولة لإبقاء النون، ويكون بميل صوت النون قليلا إلى مخرج الصوت الذي يليه. فإذا جاور صوت النون الساكن أحد الأصوات الآتية: «القاف، الكاف، الجيم، الشين، الصاد، الزاي، الضاد، الدال، التاء، الطاء، الذال، الثاء، الفاء» فإنّ نطق صوت النون في مرحلة بين الإظهار والإدغام، فلا نحقق صوت النون تماما، ولا نطيل إدغامه مع ما يجاوره، وهذه مرحلة تستدعي من القارئ التدريب والممارسة.

(ب): «الميم وانسجامها الصوتي»

أحكام الميم الساكنة مع ما يجاورها أقلّ من أحكام النون الساكنة، إذ أن صوت الميم أقلّ تأثرا من النون بما يجاوره من الأصوات.

وإظهار الميم مع ما يليها هو الأكثر، ويكون ذلك إذا وقع بعد الميم أيّ صوت من أحرف الهجاء غير الميم والباء، مثل: «يمشون» «أم لهم سلطان». ويجب إخفاء صوت الميم إذا وقع بعدها صوت الباء، مثل: «ولستم بأخديه» «يوم هم بارزون».

أمّا إذا جاء بعد صوت الميم، ميم أخرى فإن الميم الأولى تدغم بالميم الثانية، مثل: «إنكم ماكنون» «وجاءهم ما يوعدون».

وقد اهتم علماء التجويد من إخفاء صوت الميم بصوت الفاء الشفويّ، ونصّوا على إظهاره، نحو: «هم فيها خالدون».

وسبب إخفاء الميم مع الباء صوت قويّ «شديد مجهور» يؤثر في نظائره المجاورة أكثر مما يمكن أن تؤثر الفاء^(٢) الضعيفة: «رخوة مهموسة».

١ - انظر الاصوات اللغوية ص ٢٧.

٢ - انظر الاصوات اللغوية ص ٧٣.

الفصل الثاني:

المطلب الأول: أثر التناسب الصوتي في التقاء الساكنين.

المطلب الثاني: الانسجام الصوتي وأثره في حذف الأصوات.

المطلب الثالث: أثر الانسجام الصوتي في زيادة الأصوات.

المطلب الأول

«أثر التناسب الصوتي في التقاء الساكنين»

التقاء الساكنين في الصوت العربي مسألة مهمة تؤثر في تغيير نطق الصوت اللغوي، سواء أكان في كلمتين أم في كلمة واحدة.

واللسان العربي لا يستطيع أن ينطق بصوتين ساكنين إلا إذا كانا حرف مدّ بعده صوت مدغم في مثله، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾^(٢)، وكذلك وجد الالتقاء في نحو: أَصَيِّمٌ وَدُوبِيَّةٌ.

لذا إذا التقى ساكنان على غير حده وجب التخلص منه، إمّا بحذف أحدهما أو بتحريكه، حتى تتسجم الأصوات بعضها مع بعض، وألا يتعثر الناطق بهذا النوع من الكلام، لأن لغة العرب مبنية على الخفة.

وعند استقراء الكلم وجد العلماء أن التغيير الذي يلحق أواخر الألفاظ على قسمين:

تغيير بسبب اختلاف العوامل، وهو الذي يسمّى بالإعراب.

والآخر تغيير يلحق أواخر الألفاظ المنطوقة، من غير أن يختلف العامل، وهذا الذي يهمنا.

والتغيير يكون بتحريك الساكن، نحو: التحريك لالتقاء الساكنين في مثل قولنا: كم الساعة، والأصل: كم، بسكون النون.

ونحو تحريك الساكن بإلقاء حركة الهمزة على ما قبلها من الساكن نحو: كم إبلك؟ ومَنْ أخوك؟.

وقد ذكر أبو علي الفارسي أنواعاً أخرى من هذا القبيل، مثل: إسكان المتحرك في الوقف، وإبدال الحرف من الحرف، نحو: هذا الكَلْوُ، إذا وقفت على (الكَلأ) وإسكان الإدغام، نحو: هذه يد داود، وزيادة الحرف، نحو: هذا فَرَجٌ، إذا وقفت زدت في الوقف جيما لم تكن في الأصل، ونقصان الحرف، كقوله عز وجل: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ﴾^(٣).

١- سورة الفاتحة آية (٧).

٢- سورة هود آية (٦).

٣- سورة الفجر آية (٤).

ثم عَقَّبَ على هذا التغيير الذي يحدث لنهاية الألفاظ، فقال: (وهذه الضروب من الخلاف في الأواخر وإن كانت شبه المعرَّب في أنه تغيير يلحق أواخر الكلم فليس بإعراب لأنها غير حادثة عن اختلاف العوامل)^(١).

وهذا يبيِّن لنا سرَّ التغيير الذي يحدث في كثير من الألفاظ دون تعرُّضها للعوامل التي تؤثر فيها فتغيَّر إعرابها، وما سبب التغيير الذي يلحق أواخر الألفاظ أو وسطها إلا نوعاً من الانسجام الصوتي الذي فطن إليه العربيُّ الفصيح، أنه يجب تعديله من صورته الأصليَّة إلى صورة جديدة أخفَّ على اللسان.

وإذا التقى الساكنان في كلمة واحدة وكانا مثليين في الجزم أو الوقف، مثل: لم يَرُدَّ، ولم يَغِرُّ ويعضُّ، الأول من المثليين ساكن فلما دخل عامل الجزم سَكَنَ الحرف الثاني أيضاً، وهروبا من التقاء الساكنين وجب إدغامهما.

وحركة البناء على آخر الألفاظ الواجب، إدغام المثليين عند الجزم أو الوقف لها أحكام عند التقاء الساكنين في أرْدَدِ القوم، وارْدُدْ ابنك، فإذا وجب الإدغام وجب بالتالي تحريك الآخر، لالتقاء الساكنين، لأن الحرف الأول من المثليين ساكن، والحرف الثاني ساكن أيضاً للجزم أو للوقف، فلما التقى ساكنان آخران، الحرف الثاني من المثليين وأوَّل الكلمة الثانية وجب تحريك الحرف الثاني من المثليين الساكن المدغم.

وتحريك الحرف الثاني من المثليين، يستدعي تحريك الأوَّل في المثليين الساكن، فإذا كان الحرف الثاني في الأصل مضموماً أتبع الحرف الأول بحركة الحرف الثاني وحَرَكَ ثاني المثليين بالكسر تخلصاً من التقاء الساكنين، فنقول: لم يَرْدُدِ القوم، وارْدُدِ القوم. والقياس إذا التقى ساكنان في مثل: غُضَّ الطرف، كسر ثاني المثليين تخلصاً من التقاء الساكنين، وكذا في قولك: فَرَّ اليوم، ورْدُدِ القوم.

وإذا التقى الحرفان الساكنان في كلمة واحدة، ولم يكن الحرفان الساكنان مثليين وكان اللفظ أجوفاً مثل قولنا في الجزم: لم يَقم، ولم يَبع، ولم يخف، وفي الوقف في الأمر إذا قلت: قَمْ، وبعْ وخفَّ، فإنَّه يجب حذف حرف العلة من الأجوف الواوي أو اليائي والسبب التقاء الساكنين، فتقولك: لم يَقم، الأصل فيه قبل الجزم: يقوم، فإذا استعملنا حرف الجزم سَكَنَ آخر اللفظ، وصوت اللين ساكناً، فالتقى ساكنان صوت اللين وهو عين الفعل ولام الفعل، فاضطررنا إلى حذف عين الفعل -صوت اللين- لالتقاء الساكنين، والذي قيل في الجزم يقال في الوقف في الأمر.

١ - انظر كتاب التكملة ١١٦.

وإذا أسند الفعل الأجوف إلى «ألف الاثنين» أو «واو الجماعة» فلا نقول: لم يقل ولم يخف، ولم يبيعوا. وإنما نقول: لم يقلوا، ولم يبيعا، ولم يخافوا ولم يبيعوا، لأن لام الفعل هنا ليس أصلها في هذه المسألة السكون للوقف أو الجزم، كما كان في المسألة السابقة، وإنما علامة الجزم في هذه المسألة حذف النون.

وإذا التقى صوتان ساكنان من كلمتين، وكان الحرف الأول صحيحاً حرّك بالكسر، وذلك مثل قولنا في: (لم يذهب، لم يذهب القوم، ولم أضرب، لم أضرب الغلام) عند الجزم. وإذا التقى الصوتان الساكنان من كلمتين وكان الأول صوت التنوين فإننا نحقق صوت النون بعد صوت اللين القصير وتلفظ مكسورة، ومن ذلك قولك: هذا محمد (ن) العاقل، ومررت بمحمد (ن) العاقل، ورأيت محمد (ن) العاقل.

وإذا التقت تاء التأنيث مع لام التعريف تحركت التاء بالكسر لالتقاءها مع حرف ساكن فنقول: شَرِبَتِ الماء.

وإذا أسند الفعل المعتل الآخر إلى تاء التأنيث حذف حرف العلة لالتقاء الساكنين، فنقول: رَمَتْ وبغَتْ، وإذا التقت تاء التأنيث مع لام التعريف تحركت التاء بالكسر لالتقاءها مع حرف ساكن، مثل: رمت المرأة، وبغت الأمة، ولا ترد الألف المحذوفة من: رمى وبغى، لأن كسرة التاء عارضة وغير لازمة.

وإذا كان الساكن الأول من الكلمتين اللتين يلتقي فيهما الساكنان صوت لين وكانت الحركة التي قبله من جنسه حذف صوت اللين في الدرج، وإن لم يحذف في الرسم، فنقول: هويخشى القوم، ويغزو الجيش، ويرمي الحرس، فلا يعطى صوت اللين الطويل حقّه من الطول الزمني، فتلفظ ألف المد حركة مفتوحة، واللين المضموم الطويل حركة ضم - لين مضموم قصير -، وكذا اللين الطويل المكسور - حركة مكسورة -، ولو حرّكنا صوت اللين المفتوح مثلاً لانتقلب همزة، فكره قلبه، وكذا عوملت الواو والياء كيلاً يحدث فيهما قلباً.

وإن كانت حركة ما قبل حرف اللين من غير جنس حرف اللين فالتقى صوت اللين مع ساكن من كلمة أخرى فإنه يحرك بحركة من جنسه، ولا يكون ذلك إلا في الواو والياء.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْأَلُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾^(١) فحرّكت واو الجماعة بالضمّة وإذا أمرت جماعة الناس قلت: اخشوا الله. وإذا قلت: (إخشي الله) حرّكت الياء بالكسرة. أما الألف فلا تكون حركة ما قبلها إلا الفتحة.

١ - سورة البقرة آية (٢٢٧)

المطلب الثاني

«الانسجام الصوتي وأثره في حذف الأصوات»

تتأثر الكلمة عند النطق بها كثيراً في الدرج اللغوي، فيحدث في الكلمة اقلا با أو إعلا لا أو إبدالا، وتزاد في بعض الأحيان أصواتا وفي البعض الآخر تحذف أخرى.

ومن المسائل التي يحذف فيها صوت ما، عند اتصال الفعل بنون التوكيد، ويؤكد الفعل بإحدى النونين: النون الخفيفة والنون الثقيلة، والماضي لا يجوز توكيده بها، والفعل المضارع إن دلّ على الاستقبال كان توكيده واجبا أو جائزا.

فإذا اتصل الفعل بنون التوكيد، وكان مسندا الى ألف الاثنين حذفت نون الرفع من المرفوع للتخلص من توالي الأمثال، مثل: لا تتكاسلنَّ، لا تنسيانَّ، لا تطويانَّ، وكسرت نون التوكيد للتفريق بين مخاطبة المفرد والمثنى، والأصل: لا تتكاسلنِ، لا تنسيانِ، لا تطويانِ.

وإذا اتصل الفعل بنون التوكيد وكان مسندا إلى واو الجماعة حذفت نون الرفع أيضاً، وإذا كان الفعل صحيح الآخر حذفت واو الجماعة لالتقاء الساكنين وبقيت الضمة دليلا عليها، نحو: ليجمعنَّ ليستمعنَّ، ليكتبنَّ. والأصل: ليجمعوننَّ، ليعلموننَّ، ليكتبوننَّ.

وإذا كان آخر الفعل «واو» أو «ياء» واتصل بنون التوكيد وكان مسندا إلى واو الجماعة، حذف آخر الفعل مع واو الجماعة، نحو: ليعلنَّ، ليرمُنَّ، ليقضُنَّ. والأصل: ليعلووننَّ، ليرميوننَّ، ليقضيووننَّ. وإذا كان آخره ألفاً حذفت وبقيت الفتحة دليلاً عليه، وحركت واو الجماعة بالضم لالتقاء الساكنين، نحو: ليرضوننَّ، لينسوننَّ، ليسعوننَّ، والأصل: ليرضاوننَّ، لينساوننَّ، ليسعاوننَّ.

وإذا أسند الفعل إلى ياء المؤنثة المخاطبة حذفت نون الرفع من الفعل المرفوع، فإذا كان الفعل صحيح الآخر حذفت ياء المخاطبة لالتقاء الساكنين، وبقيت الكسرة دليلا عليها، نحو: لتحضرنَّ، لتعودنَّ، والأصل: لتحضريننَّ، لتعوديننَّ.

وإذا كان آخر الفعل «ياء» أو «واو» حذفت لام الفعل مع ياء المخاطبة، نحو: لتبننَّ، لترمينَّ، لتدعينَّ، والأصل: لتبنيننَّ، لترميننَّ، لتدعويننَّ.

وإذا كان الفعل المسند إلى «الياء» المؤنثة المخاطبة آخره ألفاً حذفت وبقيت الفتحة دليلا عليه، وحركت ياء المخاطبة بالكسر لالتقاء الساكنين نحو: لترضينَّ، لتسعينَّ، لتشفينَّ، والأصل: لترضائيننَّ، لتسعائيننَّ، لتشفائيننَّ.

وإذا التقت النون الخفيفة -وهي ساكنة- بساكن بعدها حذفت للتخلص من التقاء الساكنين، نحو: لترضينَّ، لتسعينَّ، لتشفينَّ، والأصل: لترضائيننَّ لتسعائيننَّ، لتشفائيننَّ.

وإذا التقت النون الخفيفة -وهي ساكنة- بساكن بعدها حذفت للتخلص من التقاء الساكنين، نحو: هلا تعطي الفقير.

فالدرج في الكلام منع كثيرا من الأصوات اللغوية المقررة أصلاً في النطق، ولكن الثقل على اللسان من جرّاء نطق بعض الاصوات منع ظهورها فيها فحذفت لا لعلّة نحوية، وإنما لعلّة صوتيّة، وخفّة لفظية، وهذا مثل ما تنطق قبيلة تميم -اسم المفعول- مَصُوُون وغيرها: مصون^(١) وبيان هذه المسألة وما شابهها يظهر كثيرا من التغيير الذي يحدث في اللفظ، وهو المسمّى عند علماء الصرف بالإعلان.

فإن كان الفعل أجوفاً، فإن اسم المفعول منه يحدث فيه إعلال وتحذف منه واو (مفعول)^(٢). فاسم المفعول منه فيما عينه واو على مَفْعَل، بعد نقل حركة عين الكلمة إلى ما قبلها فيلتقي ساكنان عين الكلمة وواو مفعول، فتحذف إحدى الواوين تخلصاً من التقاء الساكنين، فاسم المفعول من قال: مَقُول. وصال: مَصُول. وقاد: مَقُود^(٣). ومثله: الأجوف فيما كانت عينه ياءً، فإن اسم المفعول منه يكون على مَفْعَل بعد نقل حركة الياء إلى ما قبلها فيلتقي ساكنان عين الكلمة -الياء- وواو اسم المفعول، فيحذف أحد الساكنين تخلصاً من التقاءهما فاسم المفعول من باع: مبيع، وهاب: مهيب، وقاس: مقيس^(٤).

وإذا كان الفعل المضارع مثلاً وكانت فاؤه واوا، حذفت فاء الكلمة فنقول: يَعد، يَطأ، يَسع، يَضَع، يَعد، والأمر محمول على المضارع، فتحذف فاء الكلمة، نحو: ضَعْ، عِدْ، وكذا المثال المهموز فإن الأمر منه تحذف فاؤه، فنقول خذ، كل، مر^(٥).

والأجوف تحذف عينه إذا اتصل بضمير رفع متحرك نحو: خفت، خفنا، استجيتم، استجبتما، قلنا، بعنا، وهكذا...، وكذا تحذف عين الكلمة في الأمر، نحو: قل، استقم، اختر، سر، بع. وإذا كان الفعل ناقصاً واتصل بواو الجماعة فإن الماضي منه تحذف لامه، مثل: رسّوا، سرّوا، بقّوا، وإذا اتصل الناقص بتاء التانيث، تحذف لامه إذا كانت ألفاً، نحو: استغنت، أعطت، دعت. كما

١- انظر لغة تميم في الأجوف. كتاب الضياء في تصريف الأسماء ص ٩٤-٩٥.

٢- ذهب الأخفش إلى أن المحذوف هو عين الكلمة. انظر كتاب تصريف الأسماء والأفعال. ص ١٥٦، وكتاب الضياء في تصريف الأسماء ص ٩٢-٩٣-٩٤.

٣- بنو تميم يلفظون اسم المفعول الأجوف على أصله: فيقولون: مَصُوُون، مَقُود. وعلماء الصرف يعتبرونه شاذاً. علماً بأنه الأصل. انظر تصريف الأسماء والأفعال ص ٢٥٦. الضياء في تصريف الأسماء ص ٩٥.

٤- بنو تميم يلفظون الكلمة على أصلها، فيقولون: مبيع، مهيب، مقيوس، وهذا من الشاذ. انظر تصريف الأسماء والأفعال ص ١٥٦، الضياء في تصريف الأسماء ص ٩٤.

٥- مر: إن لم يكن في أول الكلام جاز حذف الهمزة وثبوتها، نحو: قوله تعالى: (واؤمر أهلك بالصلاة) سورة طه آية (١٣٢)

تحذف لام المضارع المنقوص إذا اتصل بياء المخاطبة أو واو الجماعة، نحو: تسعين، ترعين، يرضون، يلقون، وتحذف لام الامر المنقوص، نحو: اسع، ارم، ادع، وكذا إذا أسند إلى واو الجماعة أو ياء المخاطبة، نحو: ارموا، اسمعوا، ادعوا، ادعي، اسعي، ارمي.

وإذا كان الفعل لفيفا مفروقاً فإن حكم فاءه حكم المثال، وحكم لامه حكم المنقوص، فنقول: وقوا، وقَّتا، وقَّتْ، نقى، تقى، تقين، ق، قين، قوا، فنلاحظ حذف فاء الكلمة وأخرى عين الكلمة، وثالثة الاثنتين معاً في آن واحد.

وإذا كان الفعل لفيفا مقروناً، فإن حكم لام الكلمة مثل المنقوص فنقول: طووا، طوتوا، طوتت، يطوون، اطلو، اطلووا. فتحذف لام الفعل منه.

والفعل (رأى) تحذف همزته في المضارع، فنقول: أرى، ترى، يرون، ترين، وهكذا.... وإذا كان أمراً حذفت عين الكلمة ولاهما، نحو: ر، رَوا.

المطلب الثالث

«أثر الانسجام الصوتي في زيادة الأصوات»

عند النطق السليم يستدعي المرء أن ينطق أصواتاً زيادة عن الأصل، وسبب زيادة هذه الأصوات إمّا لإمكان اللسان من النطق من الصوت، أو إظهار حركة أو إعطاء لفظ ما معنىً فارقاً.

ولإمكان اللسان من النطق زيدت الهاء فيما كان من الأفعال على حرف واحد في الوقف كفعل الأمر من (وفى ووفى ووعى) تقول العرب: (فَهْ، وعَهْ، وقَهْ) بزيادة هاء على ما بقي من الفعل حتى يمكن النطق به، لأنه لا بد من حرف يبدأ به وحرف يوقف عليه^(١).

وقد نبّه علماء الأصوات حين نطق صوت من الأصوات وحده مستقلاً عن غيره من الأصوات، على وجوب الاحتراز من الإتيان قبله بهمزة وصل، بل ننطق به مجرداً وساكناً^(٢)، وخصّصوا همزة الوصل بالاحتراز لخفتها وإمكان دخولها على جميع الأصوات الساكنة المفردة أو المبدوء بها.

وذكر ابن يعيش: زيادة الحروف وبيّن أنه ليس المراد من قولنا حروف الزيادة أنها تكون زائدة لا محالة، لأنها قد توجد زائدة وغير زائدة، وإنّما المراد أنه إذا احتيج إلى زيادة حرف لغرض لم يكن إلا من هذه العشرة -أي: سألتمونيها-، وأصل حروف الزيادة حروف المدّ واللين التي هي الواو والياء والألف، وذلك لأنها أخف الحروف إذ كانت أوسعها مخرجاً وأقلّها كلفة، وأما قول النحويين أن الواو والياء ثقيلتان، فبالنسبة إلى الألف، وأما بالنسبة إلى غيرها من الحروف فخفيفتان^(٣).

١- انظر المبدع ص ١١٨.

٢- انظر الأصوات اللغوية ص ٢٠، المدخل إلى علم اللغة ص ٢٧، ودراسات في علم الأصوات اللغوية ص ١٤٠.

٣- شرح المفصل ١٤١/٩.

واللغة العربية تمنع البدء بالساكن، ويجب أن يكون اللفظ المنطوق مبتدأ بصوت متحرك، وكان لا بدّ من التخلص من هذه المسألة دون تغيير معنى المنطوق بأن زيد صوت همزة الوصل في أول الألفاظ الساكنة.

وقد عقد أبو حيان النحوي فصلاً في أسباب زيادة الحروف، وذكر سبعة أسباب منها: (الإمكان) وقال: (والإمكان نحو: همزة الوصل). وقد شرح المحقق ذلك بقوله: فإنها جيء بها زائدة ليتوصل بها إلى النطق بالساكن^(١).

ففي فعل الأمر يصاغ من الثلاثي المجرد، بحذف حرف المضارعة من الفعل المضارع، فإذا كان ما بعد حرف المضارعة متحركاً فإنه لا يحتاج إلى همزة وصل. فنقول: يقول، يبيع، يخاف، وفي الأمر: قل، بيع، خف.

وإذا كان ما بعد حرف المضارعة ساكناً احتجنا إلى همزة الوصل، فزيدت قبل الحرف الساكن للتمكن من النطق بالساكن، نحو: اشرب، اكتب، اجلس، اكرم، اعلم، اضرب، احلم. وكلها في المضارع ساكنة الحرف الذي يلي حرف المضارعة^(٢).

والثلاثي يكون مزيداً بحرف وحرفين وثلاثة أحرف، ومزيد الثلاثي لا يبدأ بهمزة وصل. ويعيننا المزيد الثلاثي بحرفين وثلاثة أحرف.

والمزيد الثلاثي بحرفين يكون على خمسة أوزان هي: انفعّل، افعلّ، افعلّ، افعلّ، تفعلّ. فالأوزان الثلاثة الأولى تبدأ بهمزة وصل وأمثلتها على الترتيب:

١- انفعّل: انفتح، انمحي، انكسر، انقاد، انقطع.

٢- افعلّ: اشتاق، افترش، اصطبر، اتقى، امتدّ، ادّعى، افتتح، اتخذ، ادّعى.

٣- افعلّ: اصفرّ، اسودّ، احمرّ، ارعوى، ازرقّ، اخضرّ^(٣).

أمّا الثلاثي المزيد بثلاثة أحرف فتكون على الأوزان التالية: استفعلّ، افْعَوَعَلْ، افْعَالٌ، افْعَوَلْ، افْعَلَلْ، افْعَلَلْ. وجميعها تبدأ بهمزة الوصل وأمثلتها على الترتيب:

١- استفعلّ: استغفر، استوزر، استقام، استمدّ، استرضى، استخرج، استفهم، استأمر، استحجر.

٢- افْعَوَعَلْ: اغدون، اخشوشن، اعشوشب.

٣- افْعَالٌ: احمارّ، اخضارّ، اشهابّ.

١- انظر المبدع ص ١١٨. وانظر الاشباه والنظائر ١٧٦/٢.

٢- انظر تصنيف الأسماء والأفعال ص ٩٢.

٣- انظر التطبيق الصريح ص ٣٦. رسالتان في علم الصرف ص ١٥٨ وقارن بينهما.

٤- افعُول: اعلوُطَ، اجلوُذ^(١).

٥- افعنل، اقعنسس^(٢).

٦- افعنلى: اسلنقى^{(٣) (٤)}.

اما الثلاثي المزيد بأربعة أحرف -والمسمّى بمصدر الفعل السداسي- ولا يكون إلا في المصادر، وله من الأبنية ما يبدأ بهمزة الوصل ما يلي:

١- استفعال، نحو: استقبال، استفهام، استغفار.

٢- افعيلا، نحو: احميرار، امليساس، اسويداد^(٥)

٣- افعيعال، نحو: اخشيشان^(٦) احديداب، اغريراق^(٧)

ويكون الثلاثي المزيد بثلاثة أحرف مصدرا، وهو ما سمّي بمصدر الفعل الخماسي، فيكون على ثلاثة أبنية كل منهما يبدأ بهمزة وصل:

١- انفعال، نحو: انطلاق، انفتاح، انكسار.

٢- افتعال، نحو: اقتدار، اقتتال.

٣- افعلال، نحو: احمرار، اصفرار^(٨)

اما الرباعي المزيد ويبدأ بهمزة الوصل فإنه يكون فيما يزداد فيه ثلاثة أحرف، ويكون على بناءين:

١- إفعنلال، نحو: إحرنجام، إسحنفار^(٩)

٢- إفعلال، نحو: إطمئنان، إقشعرار^(١٠).

فإن هذه الأبنية وما كان على أوزانها من الأفعال أو المصادر أساس البدء في النطق بهمزة الوصل سببه صعوبة ابتداء النطق بالساكن الذي يلي همزة الوصل وسهولة النطق بها:

وأمّا الأسماء التي ليست بجارية على أفعالها فقليلاً ما تدخل همزة الوصل عليها، وتدخل على

١- الجلوذ: الغليظ الشديد. القاموس المحيط (جلذ). والجلوز: البندق جمهرة اللغة ٤٢٣/٣. وجلوُذ: اسرع. اعلوُط: (تعلق بعنق البعير). التطبيق الصريح ص ٤٠.

٢- اقعنسس الرجل: تقاعس. جمهرة اللغة ٣١/٣، ٣٩٩.

٣- يقال: سلق الرجل المرأة: اذا بسطها ثم جامعها. جمهرة اللغة ٤١/٢.

٤- انظر التطبيق الصريح ص ٣٩ - ٤٠، رسالتان في علم الصرف ص ١٩١ - ١٩٣.

٥- الاحميرار: مصدر احمار، وآلا مليساس: مصدر أملاس. والاسويداد مصدر اسواد.

٦- الاخشيشان: مصدر إخشوشن. والاحديداب: مصدر احدودب. والاغريراق: مصدر اغرورق.

٧- انظر تصريف الأسماء والافعال ص ٧٣.

٨- انظر الضياء في تصريف الأفعال ص ٦٣. رسالتان في علم الصرف ص ٢٠٠.

٩- الاحرنجام: الاجتماع. ونعم محرنجم اذا اجتمع. جمهرة اللغة ٣٩٩/٣. والاسحنفار: الاسراع.

١٠- انظر تصريف الأسماء والافعال ص ٨٠.

أسماء عشرة معدودة وهي: ابن وابنة وابنم -بمعنى ابن- واثنان وامرؤ وامرأة واسم واست وايمن
الله وايم الله^(١).

وسبب تسمية هذه الهمزة (همزة الوصل) لأنها تسقط في الدرج فتصل ما قبلها الى ما بعدها
ولا تقطعه عنه كما يفعل غيرها من الحروف. وقيل: سميت وصلاً لأنه يتوصل بها إلى النطق
بالساكن.^(٢)

وحكمها في الأصل أن تكون مكسورة أبداً، لأنها دخلت وصلة إلى النطق بالساكن، فتخلوا سكونها
مع سكون ما بعدها فحركوها بالحركة التي تجب لالتقاء الساكنين وهي الكسرة، فإن كان الحرف
الثالث من الاسم الذي فيه همزة الوصل مضموماً ضمداً لازماً ضمت الهمزة، نحو: اقتل، اخرج،
استضعف، وذلك أنهم كرهوا أن يخرجوا من كسرة إلى ضمة لأنه خروج من ثقل إلى ما هو أثقل
منه ليس بينهما إلا حرف ساكن^(٣).

وتفتح همزة الوصل مع لام التعريف وميمه، والعلّة في ذلك أنهم أرادوا أن يخالفوا بين حركتها مع
الحرف وحركتها مع الاسم والفعل، وفي همزة (أيمن الله) في القسم، فمفتوحة أيضاً، والسبب
أنها دخلت على غير متمكن ولا يستعمل إلا في القسم فتحت همزته تشبيهاً لها بالهمزة اللاحقة
حرف التعريف^(٤).

وإثبات همزة الوصل في النطق عند الدرج خروج عن كلام العرب، ويعتبر إظهار صوت همزة
الوصل عند ذلك لحناً فاحشاً، وأن هذه الهمزات إنما جيء بها وصلة إلى الإبتداء بالساكن،
إذ كان ابتداء بالساكن مما ليس في الوسع، فإذا تقدّمها كلام سقطت الهمزة من اللفظ، لأن
الكلام المتقدم قد أغنى عنها، فلا يقال: الإسم، والإنطلاق، والإستغفار، ومن إبنك، وعن إسمك،
بإثبات الهمزة عند الدرج، لعدم الحاجة إليها لأن الداعي إلى الإتيان بها قد زال وهو الإبتداء
بساكن، فكان إثبات همزة الوصل في الدرج لحن، لأنه عدول عن كلام العرب، وقياس استعمالها،
وكان زيادة من غير حاجة إليه. ونظير همزة الوصل، هاء السكت، أتى بها وصلة إلى الوقف على
المتحرك، فإذا وصل بكلام بعده سقطت الهاء^(٥).

١- انظر شرح المفصل ١٢٢/٩. الأشباه والنظائر ١٧٧/٢.

٢- انظر شرح المفصل ١٣٦/٩.

٣- انظر شرح المفصل ١٣٧/٩. الأشباه والنظائر ١٧٧/٢.

٤- انظر شرح المفصل ١٣٧/٩.

٥- انظر شرح المفصل ١٣٧/٩.

الفصل الثالث:

المطلب الاول: أثر الحركات في التناسب الصوتي.

المطلب الثاني: أثر الانسجام الصوتي في صفات لأصوات.

المطلب الثالث: تناسب الأصوات في اللسان الفصيح.

المطلب الأول

«أثر الحركات في التناسب الصوتي»

تميل اللغة العربية إلى التخفيف، وكأنَّ العربيَّ الفصيح يتخَيَّر من الأصوات الخفيفة وينطقها، ولو اضطره ذلك إلى تغيير صوت إلى صوت آخر، كأنَّ يبدل صوت الضمة فتحة أو كسرة، أو يبدل صوتاً ساكناً بآخر، أو يتخلَّص من الثقل بحذف الحرف المستقل، كل ذلك للخفة التي يطلبها. و(أبو علي الفارسي) سمَّى فئةً من اللغويين: (أهل التخفيف)^(١) لأنهم يستقلون عند الدرج اللغوي النطق بصوت ثَقِيل فيخَفِّفونه، ولعلَّه يقصد بذلك فصحاء العرب. وتحدثت سابقاً عن تخفيف المنطوق بحذف حرف من الكلمة وهذه مسألة في تخفيف الدرج اللغوي بواسطة الحركات.

وذكر السيوطي: أنَّ أثقل الحركات الضمة ثم الكسرة ثم الفتحة^(٢). ونقل عن (ابن جني) قوله: أرى الدليل على خفة الفتحة أنهم يفرِّون إليها من الضمة كما يفرِّون من السكون، ويبيِّن أنَّ المرفوعات قليلة بالنسبة للمنصوبات، حيث جعل الأثقل للأقل لقلَّة دورانه، والأخفُّ للأكثر ليسهل ويعتدل الكلام بتخفيف ما يكثر وتثقل ما يقلُّ.

فالفاعل ليس له إلا مرفوع واحد، وينصب عشرة أشياء، ولما كانت المجرورات أكثر من المرفوعات وأقلُّ من المنصوبات أعطيت الحركة الوسطى في الثقل والخفة. والمبني على الكسر والمبني على الضمِّ أقلُّ من المبني على الكسر.

واختصاص نون التثنية بالكسر ونون الجمع بالفتح لثقل الجمع فأعطي الأخف، وأعطيت التثنية لخفَّتْها الكسر ليتعادلا.

وامتناع الجر والكسر في الأفعال فراراً من الثقل، ولا خلاف أنَّ الفتح أخفُّ من الكسر، والألف أخفُّ من الياء، والفتحة أقرب إلى الكسرة من الضمة، ولهذا يحمل الجرُّ على النصب في ما لا ينصرف على الجرِّ في جمع المؤنث السالم حملاً على القرب.

١- انظر كتاب التكملة ص ٢١٢.

٢- الأشباه والنظائر ١/ ١٩٣.

والضمة والكسرة مستثقلتان مباينتان للسكون، والفتحة قريبة من السكون، من الضمة والكسرة، وذلك أنهم يقولون في غُرْفَة غُرْفَات وفي كَسْرَة كَسَرَات بالإتياع ثم إنهم يستثقلون ذلك فيقولون: (كَسَرَات) و(غُرْفَات) بالسكون، وبعضهم يقول (غُرْفَات) و(كَسَرَات) بالفتح، فيعرف أن بين الفتحة والسكون مناسبة، ولا يقولون ذلك في (ضربة) وإنما يقولون (ضَرَبَات) لا غير. وأيضاً فإن العرب تخفف الكسرة في (فَخِذ) والضمة في (عَضُد)، ولا تخفف الفتحة في (جَمَل) فأما (الْقَدَر) و(الْقَدَر) فثقلتان وكذلك (الدَّرَك) و(الدَّرَك)^(١).

والذي قاله علماء اللغة المحدثون في شيوع استعمال الحركات لخففتها يؤكد مفهوم كلام العلماء القدامى، فأخفَّ الحركات أكثرها شيوعاً عند المحدثين، فقد بلغت نسبة استعمال الفتحة في اللغة العربية حوالي ٤٦٠ في كل ألف من الحركات قصيرها وطويلها، في حين أن الكسرة حوالي ١٨٤ والضمة^(٢) ١٤٦. فبسبب كثرة استعمال الفتحة يعود لخففتها، كما أن قلّة استعمال الضمة لثقلها.

وقد أجرى الدكتور محمد علي الخولي أحصاءً لتكرار الأصوات وقد استنتج أن الصوت المفتوح القصير يحتل المرتبة الأولى بين جميع الأصوات والحركات، ويأتي بعده الكسر الطويل وأخيراً الضمّ الطويل، ويذكر أن الفتحة القصيرة احتلت المرتبة الأولى في الشيعي توافقاً مع مبدأ سهولة النطق^(٣).

والأصل في كلّ ساكنين التقيا أن يحرك الأول منهما بالكسر، نحو قولك في الأسماء: من الرجل، وزيد الظريف، والفعل: خذ العفو، وأردد الجيش، والحرف، نحو: هل الرجل في الدار، وقد انطلق خالد. إذ التقاء الساكنين لا يجوز بل هو غير ممكن وذلك من قبل أن الحرف الساكن كالموقوف عليه وما بعده كالمبدؤ به ومحال الإبتداء بساكن فذلك امتنع التقاؤهما^(٤).

والغرض من التحريك الإنفصال من التقاء الساكنين ويحسن بتحريك الأول ما يحسن بتحريك الثاني، والأول هو الأصل ومقتضى القياس، ولا يعدل عنه إلا لعلّة، والأصل في تحريك الأول من قبل أن سكون الأول منع الوصول إلى الثاني، فكان تحريكه من قبيل إزالة المانع إذ بتحريكه يتوصل إلى النطق بالثاني^(٥).

١- انظر الأشباه والنظائر ص ١٩٥. عن الغرة.

٢- قام بهذا الإحصاء الدكتور إبراهيم أنيس، انظر الأصوات اللغوية ص ٦٦.

٣- انظر الاصوات اللغوية. الخولى ص ١٤١. ثم انظر نسبة شيوع الاصوات، جدول (٧) صفحة ١١٧، و جدول (١٨) صفحة ١٤١.

٤- انظر شرح المفصل ١٢٠/٩.

٥- انظر شرح المفصل ١٢٥/٩.

ووجوب تحريك الحرف الأوّل بالكسر لأمرين:

الأول: أن الكسرة لا تكون غالباً إعراباً إلا ومعها التنوين أو ما يقوم مقامها من ألف ولام أو إضافة، وقد تكون الضمة والفتحة إعرابين ولا تنوين يصحبهما فإذا اضطربنا إلى تحريك الساكن حرّكناه بحركة لا يتوهم أنها إعراب وهي الكسرة.

الثاني: أن الجزم مختصّ بالأفعال، فصار الجزم نظير الجرّ، حيث إنّ الكسر لا يدخل على الأفعال، فإذا اضطربنا إلى تحريك الساكن حرّكناه بحركة نظيرة وهي الكسرة، ولو حرّكنا الأفعال المجزومة أو الساكنة عند ساكن يلقاها بالضم أو الفتح لتوهم فيه أنه غير مجزوم، لأنّ الرفع والنصب من حركات إعراب الأفعال، ولا يتوهم ذلك إذا حرك بالكسر لأنّ الجرّ ليس من إعراب الأفعال^(١).

وربما عدلوا عن ذلك لأمر شاذ أو ضرورة، فمن ذلك قراءة: ﴿قَالَتْ اُخْرِجْ عَلِيَّهِنَّ﴾^(٢) و﴿عَذَابٌ أَرْكُضُ بِرَجْلِكَ﴾^(٣) و﴿فِي جَنَاتٍ وَعَيْوُنٌ. ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾^(٤) بالضم للتابع، وذلك أنه أتبع ضمة التاء في (قالت) ضمة الراء في (اخرج) إذ ليس بينهما حاجز إلا حرف ساكن. وكذلك (عذابٌ أركض) أتبع التنوين حركة الكاف إذ ليس بينهما إلا الراء الساكنة. وإن كان الأصل فيه الكسر، والعلماء لا يستحسنون الضم في هذا لأنّ فيه خروجاً من الكسر إلى الضمّ وذلك مستثقل في لغتهم معدوم في كلامهم^(٥).

ولثقل التركيب يخرجون منه بأن يغيروا حركة اللفظ ليخف على اللسان، وفي الامثال العربية: (ذهبوا أيديّ سباً، وتفرقوا أيديّ سباً^(٦)) وإنما سكّت الياء مع أنّهما منصوبان لثقلهما بالتركيب والاعلال^(٧).

ولأنهم يفرّون من التقاء الساكنين فإنهم كسروا نون (من) عند ملاقاتها كل ساكن، على ما يقتضيه القياس، فتقول: (أخذت من ابنك، ومن امرئ القيس، ومن اثنين) إلا عند ملاقاتها لام التعريف فهي عندها مفتوحة، فيقولون: (من الرجل، ومن الله، ومن الرسول) ففتحوا مع لام المعرفة وعدلوا عن قياس نظائره، وذلك لأنه كثر في كلامهم هذا الحرف، وما فيه الألف واللام

١- انظر شرح المفصل ١٢٧/٩.

٢- سورة يوسف آية (٣١).

٣- سورة ص آية (٤١-٤٢).

٤- سورة الحجر آية (٤٥-٤٦).

٥- انظر شرح المفصل ١٢٨/٩.

٦- اي: تفرقوا تفرقا لا اجتماع معه. مجمع الامثال ٢٧٥/١.

٧- انظر مغني اللبيب ٩٢/١.

من الاسماء كثير، لأن الألف واللام تدخلان على كل نكرة، فكرهوا كسر النون مع كسرة الميم قبلها، فتوالى كسرتان مع الثقل، فعدلوا إلى أخف الحركات وهي الفتحة^(١).

ومما جاء على الأصل في تحريك الساكن عند التقاء الساكنين فعل الأمر وما يشبهه - الفعل المضارع المجزوم - فإنه يحرك بالكسرة، فنقول: (وصل ابنك، ولم يضرب ابنك) بالكسر، والأصل أنه ساكن الحركة.

وإذا كانت الحركة خفيفة النطق مع الحرف وملائمة ظهرت وكانت علامة إعراب، وقد ظهرت الفتحة على الياء لخفتها، ففي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ...﴾^(٢) فإن فتحة الياء في (شُرَكَائِيَ) خفيفة على اللسان لأنه انتقال من الثقل - الكسر - إلى التخفيف - الفتح - . ولأن الفتحة أخف الحركات.

وإذا كان حكم همزة الوصل الكسر إذا ابتدأنا بها - لأنها دخلت وصلة إلى النطق بالساكن، فحركوها بالحركة التي تجب لالتقاء الساكنين - فإن الثالث من الاسم الذي فيه همزة الوصل مضموما ضمًا لازماً تضم همزته، نحو: (أَقْتُلْ، أَخْرُجْ، أُسْتَضْعَفْ) لأنهم كرهوا أن يخرجوا من كسرة إلى ضمة، لأنه خروج من ثقل إلى ما هو أثقل منه، ليس بينهما إلا حرف ساكن وهو ضعيف، ولذلك قل في كلامهم، نحو: (يَوْمَ، يَوْخْ) فإنهم يستثقلونه للخروج من الياء إلى الواو وكثر في كلامهم، نحو: (ويل، ويح، ويس) لأنه خروج من الثقل إلى ما هو أخف منه^(٣).

فإن لم تكن الضمة في اللفظ الثلاثي أصلية مثل: (ارموا واقضوا) فإن الهمزة لا تتأثر بالضم، وتكون مكسورة، لأن الضمة عارضة، فالميم في (ارموا) أصلها الكسر، وكذلك الضاد في (اقضوا)، والأصل فيهما: (ارموا واقضوا) ومن نطق الكلمتين يظهر أن الثقل في آخرهما فأرادوا التخلص منه، وسبب الثقل الضمة على الياء المكسور ما قبلها فحذفوا الضمة للتخفيف، وبقيت الياء ساكنة، وواو الضمير بعدها أيضا فحذفت الياء لالتقاء الساكنين، ولتناسب حركة عين الكلمة واو الضمير الساكنة وتصح ضمت، فبقيت الهمزة مكسورة على ما كانت عليه.

وقد أبدلت الواو ياءً إذا وقعت الكسرة قبل الواو، وبينهما حرف ساكن، ولأن الساكن لضعفه ليس حاجزا حصينا فلم يعتد فاصلا، فصارت الكسرة كأنها قد باشرت الواو، نحو قولهم: (صَبِيَّةٌ) و(صَبِيَانٌ) والأصل (صَبُوءٌ) و(صَبُوانٌ) لأنه من (صَبَّوْتُ صَبَّوًّا)، فقلبت الواو لكسرة الصاد، ولم تفصل الباء بينهما لضعفها بالسكون، وقد أخرجوها على أصلها، فقالوا: (صَبُوانٌ)^(٤). ومثله

١- انظر شرح المفصل ٩ / ١٢١.

٢- سورة الكهف: آية (٥٢).

٣- انظر شرح المفصل ٩ / ١٢٧.

٤- انظر سر صناعة الإعراب ص ٧٣٦.

(قَبِيَّة) مِنْ (قَوَّتْ)، و (عَلِيَّه) وَأَصْلُهُ (عِلْوَةٌ) لِأَنَّهُ مِنْ (عَلَوْتَ) . وقالوا: فلان قَدِيَّةٌ فِي الْخَيْرِ، يريدون قِدْوَةً. وناقاةٌ بَلْيٌ سَفَرٌ، وَهِيَ مِنْ: (بَلَوْتَ)^(١).

المطلب الثاني

«أثر الانسجام الصوتي في صفات الأصوات»

يميل المتكلم عادة عند الكلام والنطق بالأصوات إلى الإقتصاد في الجهد العضلي، ولعل سبب ظهور بعض اللهجات العربيّة هو الميل إلى تقريب صوت من صوت آخر، أو تغيير صفة صوت إلى صفة صوت آخر يجاوره، ومثال تقريب الأصوات ما يلي: (إذا وقعت السين قبل غين أو خاء أو قاف أو طاء جازأبدالها صاداً)^(٢) وإنما ساغ قلب السين صاداً إذا وقعت قبل هذه الأصوات، من قبل أن هذه الأصوات مجهورة مستعلية، وصوت السين مهموس مستفل، فكرهوا الخروج من المهموس المستفل إلى المجهور المستعلي، فإن ذلك مما يثقل على اللسان، فأبدلوا من السين صاداً، لأن الصاد توافق السين في الهمس والصفير، وتوافق هذه الحروف في الاستعلاء فيتجانس الصوتان المتجاوران بالاستعلاء، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾^(٣) ويصاقون، و﴿يَوْمَ يَسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وجوههم ذوقوا مَسَّ سَقَرَ﴾^(٤) وسقَر، و﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾^(٥) وسَخَّرَ، و﴿أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ﴾^(٦) وأصْبَغَ، و﴿أَهْدِنَا السِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٧) وصراط. وقالوا في سَقَت: صُقَّت، وفي سَوِيق: صَوِيق^(٨).

وذكر الزبيدي: (صاطع) أنها من (ساطع) أبدلوا مع الطاء كما أبدلوا مع القاف لأنها في التصعد بمنزلتها^(٩).

ويذكر الجوهري أن: الصَلَق -محركة- القاع الصفصف، لغة في السين^(١٠). وقال الفرّاء: ﴿سَلَقُوكُمْ بِالسَّيْنَةِ حَدَادٍ﴾^(١١) و(صلقوكم) لغتان^(١٢).

١- انظر سرّ صناعة الإعراب ص ٧٣٧.

٢- شرح المفصل ٥١/١٠، وانظر سرّ صناعة الإعراب ص ٢١١.

٣- سورة الأنفال آية (٦).

٤- سورة القمر آية (٤٨).

٥- سورة الرعد آية (٢).

٦- سورة لقمان آية (٢٠).

٧- سورة الفاتحة آية (٦) وكتبت في المصحف (بالصاد).

٨- انظر سرّ صناعة الإعراب ص ٢١٢.

٩- تاج العروس (صطع) ٤١٣/٥. وانظر لسان العرب (سطع) ١٥٤/٥.

١٠- انظر الصحاح (صلق) ١٥٠٩/٤، تاج العروس (صلق) ٤١١/٦.

١١- سورة الأحزاب آية (١٩).

١٢- انظر الصحاح (صلق) ٤ / ١٥٠٩.

وفي قولنا (مصيطر) فإنَّ الصَّطَر - محرّكة - السطر، الصاد لغة في السين، ومصيطر بالصاد والسين، وأصل صاده (سين)، قلبت مع الطاء صادا لقرب مخرجهما، ومن ذلك تصيطر لغة في تسيطر، والسطر - محرّكة - العتود من المعز. والصاد لغة فيه^(١).

أمّا إذا تأخّر صوت السين عن الأصوات المستعلية لم يسغ فيها الإبدال، لأنّه إذا كان صوت السين متأخراً كان الناطق منحدرًا بالصوت من عال ولا يثقل ذلك ثقل التصعيد من منخفض، ففي نحو: (قست، ويخسر) لا تقول: (قست، ويخسر).

وتغيير صفة الصوت من الجهر الى الهمس وبالعكس، ومن صفة الشدة إلى الرخاوة وبالعكس، يشترط أن لا يكون بينهما صوت فاصل، وأن يكون الأوّل منهما ساكنًا^(٢).

فإذا وقعت السين قبل الدال الساكنة أبدلت زايا خالصة^(٣)، نحو: يذر، في: يسدر، إذا تحيّر. ويزدل: في يسدل ثوبه إذا أرخاه. وسبب جواز إبدال السين زايا، أن السين صوت مهموس مجاور لصوت مجهور هو الدال، فكرهوا الخروج من صوت إلى صوت ينافيه، ولا يمكن إدغامهما، فقرّبوا أحدهما من الآخرة، فأبدلوا من السين زايا لأنها من مخرجها^(٤) وأختها في الصفير وتوافق الدال في الجهر^(٥) فيتجانس الصوتان^(٦).

والصاد الساكنة إذا وقعت قبل الدال جاز إبدالها زايا خالصة في لغة فصحاء من العرب ومنه (لم يحرم من فزذه)^(٧) أي: فصد له. وقال الشاعر:

ودع ذا الهوى قبل القلى تركّ ذي الهوى متين القوى خير من الصرم مُزّدرًا^(٨)

فقد أبدل فصحاء من العرب الصاد زايا خالصة وحجّتهم أن الصاد مطبقة مهموسة رخوة^(٩) وقد جاورت الدال وهي مجهورة شديدة غير مطبقة، فلمّا كان بين جرسيهما هذا التنافي نبّت الدال عنها بعض نبوّ، فقرّبوا بعضها من بعض، ولم يمكن الإدغام، ولم يجترئوا على إبدال الدال لأنها ليست زائدة كالتاء في افتعل، نحو) اصطبر) فأبدلوا من صوت الصاد زايا خالصة، فتناسبت

١ - انظر تاج العروس (سطر) ٢/ ٢٦٧.

٢ - انظر دراسات في علم الأصوات اللغويّة ص ١٩٨.

٣ - يقال: جاء يضرب أصدريّه، وأسدرّيّه، وأزدرّيّه، إذا جاء الرجل فارغا، انظر التكملة والذيل والصلة (صدر) ٢/ ٦٥.

٤ - مخرج (السين والزاي والصاد) من طرف اللسان مع أطراف الثّيايا السفلى. التجويد والأصوات ص ٥٧.

٥ - فالدال صوت شديد مجهور، والسين صوت رخو مهموس، والزاي صوت رخو مجهور. انظر المدخل الى علم اللغة ص ٤٦/ ٤٧.

٦ - انظر شرح المفصل ١٠/ ٥٢.

٧ - انظر شرح المفصل ١٠/ ٥٢.

٨ - انظر لسان العرب (صدر) ٤/ ٤٤٨.

٩ - انظر التجويد والأصوات، ص ٥٨.

الأصوات لأن الزاي من مخرج الصاد وأختها في الصفيّر^(١)، وهي تناسب الدال في الجهر، فتلاءما وزال ذلك النبؤ، قال سيبويه: (سمعنا العرب الفصحاء يجعلونها زايا خالصة)^(٢).

ولا يتجاور في اللغة العربية صوت مجهور مع نظيره^(٣) المهموس، فالدال لا تكاد تجاور التاء، والزاي لا تجاور السين، والدال لا تجاور التاء وهكذا. فإذا اقتضت صيغة من الصيغ أن يتجاور صوت مجهور مع نظيره المهموس مجاورة مباشرة وجب أن يقلب أحدهما، بحيث يصبح الصوتان إمّا مهموسين أو مجهورين^(٤).

ونظائر الاصوات المهجورة التالية: الدال، الذال، الزاي، الصاد، العين، الغين، الأصوات المهموسة على الترتيب الآتي: التاء، الثاء، السين، الطاء، الحاء، الخاء^(٥).

ولبعض الأصوات الشديدة نظائر رخوة: فالدال صوت شديد نظيره الرخو الزاي أو الذال، والتاء صوت شديد نظيره الرخو السين أو الثاء، والباء صوت شديد نظيره الرخو الفاء، والطاء صوت شديد نظيره الرخو الصاد، والكاف صوت شديد نظيره الرخو الشين، والقاف صوت شديد نظيره الرخو الخاء^(٦).

وخرج عن هذا تألف الشين والكاف: في مثل: (شكر وكشر)، وقد احتمل اجتماعهما، وخفّ على اللسان ائتلافها لأن كلاّ منهما في مقطع، والأمر الثاني أن الشين حين تحرّكت فقد صار بين الشين والكاف حاجز وهو حركة، وكان يرى العلماء القدامى أن محلّ الحركة من الحرف بعده، وهذا مثل ما ذكره ابن يعيش: إن تحرّكت الصاد امتنع البدل. لأنه قد صار بين الصاد والدال -عند كلامه عن سدر وسدل- حاجز وهو الحركة، لأن محلّ الحركة من الحرف بعده^(٧).

وصوت الدال الشديد الساكن عندما يجاور نظيره صوت الدال وهو صوت رخو، فإن صوت الدال يصبح رخوًا وبالتالي يدغم بالذال، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾^(٨)

١- ينطبق وصف الصفيّر على ثلاثة أصوات من الصوامت في العربية، هي: السين والزاي والصاد. انظر دراسات في علم الأصوات اللغوية ص ١٦٠. ويزيد الدكتور إبراهيم أنيس عن هذه الثلاثة بعض الاصوات، هي: التاء، الذال، الشين، الطاء، الفاء. ويقول: على أن هذه الأصوات تختلف في نسبة وضوح صفيّرها. انظر الأصوات اللغوية ص ٧٤.

٢- انظر شرح المفصل ١٠ / ٥٣.

٣- ومعنى التناظر: إما اتحاد المخرج بين كل من الصوتين المتناظرين أو قرب المخرجين أحدهما من الآخر. انظر الأصوات اللغوية ص ٢٥ / ٢٢.

٤- انظر الاصوات اللغوية ص ١٨٣.

٥- المصدر نفسه ص ٢٢. فالدال نظيره التاء، والذال نظيره الثاء وهكذا، وليس لجميع الأصوات المهجورة نظائر مهموسة.

٦- المصدر نفسه ص ٢٥.

٧- انظر شرح المفصل ١٠ / ٥٣.

٨- سورة الأعراف آية (١٧٩).

فالدال الشديدة الساكنة إذا جاورت نظيرها التاء الرخوة، أصبحت التاء رخوة ويتحول مخرجها الى مخرج التاء الرخوة ويتم الإدغام، قال الله تعالى: ﴿أَلَا بَعْدَ لَمَدَيْنِ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودٌ﴾^(١) حيث تحول صوت التاء الشديد إلى صوت رخو^(٢).

والحركة إذا كانت تمنع الإدغام، فإن الحركة تقوّي الصوت فيمتنع بها، فلا يقلب إلى نظيره إذا جاوره، لأن الحرف لا يقلب إلا بعد إيهانه بالسكون، فيقولون (صدق وصدر) وذلك مطرد ومستمر، ولا يجوز قلبها (زايا) إلا فيما سمع عن العرب^(٣).

المطلب الثالث

تناسب الاصوات في اللسان الفصيح

الأصوات العريية معروفة وهي حروف المعجم: الأصول^(٤) - موصوفة ومعروفة المخارج - وأصوات اللين. والعربي الفصيح ينطق هذه الاصوات نطقاً صحيحاً.

هذه الأصوات الأصول يتفرع عنها أصوات عند الدرج الصوتي، منها ما يكون فصيحاً وآخر رديئاً. فأصوات حروف المعجم الأصول - التسعة والعشرين - تلحقها ستة أحرف تتفرع عنها حتى تكون خمسة وثلاثين حرفاً. وهذه الستة حسنة يؤخذ بها في القرآن الكريم وفصيح الكلام، وهي النون الخفيفة، ويقال الخفيّة، والهمزة المخففة، وألف التفعيم، وألف الإمالة، والشين التي كالجيم، والصاد التي كالزاي^(٥).

هذه الأصوات الستة تزداد في تعداد الأصوات العريية وهي فصيحة في النطق، وإن لم يرمز لها في تعداد الحروف^(٦) فالنون الخفيفة والخفيّة: نون ساكنة بعدها حرف تخفى معه، وهي النون الساكنة المدغمة في الباء والتي ينتج عنها مع الباء ما يشبه الميم مع خفاء النون^(٧) في مثل قوله تعالى ﴿إِذْ أَنْبَعَتْ أَشْقَاهَا﴾^(٨) والمعروف بالإقلاب.

وقد فرّق العلماء بين النون الساكنة والنون المتحرّكة، وعدّوا النون المتحرّكة أصلية. ففى النون

١- سورة هود آية (٩٥).

٢- انظر دراسات في علم الأصوات اللغوية ص ١٩٩. والتجويد والأصوات ص ٩٧.

٣- انظر شرح المفصل ٥٣/١٠.

٤- هي تسع وعشرون حرفاً - وهو رأي سيبويه - خلافاً للمبرد، إذ عدّها ثمانية وعشرين أولها الباء وآخرها الياء وليس منها الهمزة، لأنها لا تثبت على صورة واحدة، انظر مناقشة ابن عصفور للمبرد والرد عليه. الممتع ص ٦٦٣ - ٦٦٤، وانظر سرّ صناعة الإعراب ص ٤٣.

٥- انظر الكتاب ٤٣٢/٤، وسرّ صناعة الإعراب ص ٤٦. وشرح المفصل ١٠/١٢٦. والممتع ٦٦٥.

٦- انظر المبدع ص ٢٥٥. وشرح المفصل ١٠/١٢٦.

٧- انظر المبدع ص ٢٥٥.

٨- سورة الشمس آية ١٢.

الساكنة نحو «مِنْ» و«عَنْ» والنون المتحركة في نحو «نَعَمْ» و«نَفَر» تسمع كل واحدة منهما نونا، وتكتبان شكلاً واحداً، ومخرج الساكنة من الخياشيم، ومخرج المتحركة من الفم^(١)، ويدلُّك على أن النون الساكنة من الأنف والخياشيم، أنك لو أمسكت بأنفك، ثم نطقت بها لوجدتها مختلفة، وأمّا النون المتحركة فمن حروف الفم، إلا أن فيها بعض الغنة من الأنف^(٢).

وأما الهمزة المخففة فهي التي تسمى: همزة بَيْنَ بَيْنَ ومعنى قول سيبويه «بَيْنَ بَيْنَ» أي هي بين الهمزة وبين الحرف الذي منه حركتها^(٣)، إن كانت مفتوحة فهي بين الهمزة والألف، وإن كانت مكسورة فهي بين الهمزة والياء، وإن كانت مضمومة فهي بين الهمزة والواو، إلا أنها ليس لها تمكّن الهمزة المحققة، وهي بزنة المحققة ولا تقع أولاً أبداً لقربها بالضعف من الساكن، فالمفتوحة نحو قولك في سأل: سأل، والمكسورة نحو قولك في سئِم: سيم، والمضمومة نحو قولك في لؤم: لؤم^(٤).
وأما ألف الإمالة التي تجدها بين الألف والياء نحو قولك في: عَالِمٍ وَخَاتِمٍ: عَالِمٍ وَخَاتِمٍ^(٥)، وذكر سيبويه أنها التي تمال إمالة شديدة فتبعدها عن الألف، وتقربها من الياء، وتتمثل في المشافهة في القراءات^(٦). فكتبوا: «أحاديها» و«سوايهن» بالياء لمكان إمالة الفتحة قبل الألف الى الكسرة^(٧).
وقرأ الكسائي بإمالة الفتحة الى الكسرة عندما تكون تاء التانيث مثل «رحمة» حين الوقوف عليها. ومثل ألف المد حين تمال تصبح مشوبة بالكسرة، كما في قراءة «ربا» بالامالة، ولا فرق بين هذا النوع والنوع الأول إلا في كمية الزمن^(٨). وتلفظ الفتحة الممالاة إمالة شديدة أو المد المفتوح الممال إمالة شديدة قريباً من الصوت «é» الفرنسي، أما الامالة الخفيفة فيظهر أن الفتحة حينئذ تشبه الى حد كبير الصوت الفرنسي «ê»^(٩) وقرأ بعضهم^(١٠): ﴿رَأَى الْقَمَرَ﴾^(١١) وقرئ ﴿وَأَنَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١٢) و﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ﴾^(١٣).

١- انظر الكتاب ٤/٤٢٣ - ٤٢٤، وسر صناعة الإعراب ص ٤٣. وشرح المفصل ١٠/١٢٦.

٢- انظر سر صناعة الإعراب ص ٤٨. وشرح المفصل ١٠/١٢٧.

٣- الكتاب ٤/٤٣٢. وشرح المفصل ١٠/١٢٧.

٤- انظر سر صناعة الإعراب ص ٤٨.

٥- انظر سر صناعة الإعراب ص ٥٠. والاشباه والنظائر ١/١٨٩.

٦- الكتاب ٤/٤٣٢.

٧- سر صناعة الإعراب ص ٥٠. وكان يظن ابن جني أن هناك حركات قصيرة قبل حروف المد. انظر الأصوات اللغوية ص ٣٩.

٨- انظر الأصوات اللغوية ٣٩ - ٤٠.

٩- انظر الأصوات اللغوية ٣٥ - ٤١، التجويد والأصوات ص ٤٣.

١٠- انظر سر صناعة الإعراب ص ٥٢.

١١- سورة الأنعام آية ٧٧.

١٢- سورة البقرة آية ١٥٦.

١٣- سورة الأنعام آية ٢٣.

وأما ألف التفخيم فهي التي تجدها بين الألف وبين الواو، نحو: سَلامٌ عليك وقام زيد^(١). وهي لغة أهل الحجاز في «الصلوة» وأمثالها حيث يفخمون الألف مع اللام^(٢) وعلى هذا كتبوا: «الصلوة» و«الزكوة» و«الحيوة» بالواو، لأنَّ الألف مالت نحو الواو^(٣)، ولأنَّ القدامى يعتبرون أنه يوجد قبل صوت المدّ الطويل حركة، فقد ذكر ابن جني أنَّ الفتحة الممالة نَحَوَ الضمة والتي تكون قبل ألف التفخيم وذلك نحو: الصلّاة، والزكّاة، ودعّاء، وعزّاء، وقام، وصّاع. وكما أن الحركة أيضاً هنا قبل الألف ليست فتحة محضة، بل هي مشوبة بشيء من الضمة. فكَذلك الألف التي بعدها ليست ألفاً محضة لأنها تابعة لحركة هذه صفتها فجري عليها حكمها^(٤).

ويماثّل نطق ألف التفخيم أو المدّ المفخم والفتحة الممالة إلى التفخيم «e» باللغة الألمانية^(٥)، وهو الصوت الخامس من المقاييس المعيارية حين النطق بها^(٦).

ويظهر أنَّ تلك الأنواع الفرعية كانت شائعة في اللسان العربي قديماً وإن لم تكن منسوبة لأصحابها^(٧). وفي الحديث عن الأصوات الفرعية فإنّه يوجد بعض الأصوات الفرعية تقارب الحركات الأصلية، وما هي إلا أصوات اللين القصيرة إلا أنها غير خالصة، فتجد الكسرة مشوبة بشيء من الضمة، والضمة مشوبة بطرف من الكسرة^(٨). وتحدثت عن الفتحة الممالة إلى الكسرة والفتحة المفخمة.

أما الكسرة المشوبة بالضمة فنحو: قِيلَ، وَبِيعَ، وَغَبِضَ، وَسُيِّقَ^(٩). ومثّل ابن جني بهذه الكلمات مع أن الكسر مدّ طويل إلا أنه لا فرق بين صوت اللين الطويل والقصير إلا في الكمية الزمنية. وهذا المدّ الممال نحو الضمّ هو ما سماه النحاة بالإشمام حين ينطق بعض العرب بالفعل المبني للمجهول^(١٠).

١- سرّ صناعة الإعراب ص ٥٠، وشرح المفصل ١٢٧/١٠.

٢- الكتاب ٤٣٢/٤، والأشباه والنظائر ١٨٩/١، والأصوات اللغوية ص ٤٠.

٣- سرّ صناعة الإعراب ص ٥٠، وشرح المفصل ١٢٧/١٠.

٤- انظر سرّ صناعة الإعراب ص ٥٢.

٥- انظر الأصوات اللغوية ص ٣٥.

٦- انظر علم اللغة العام «الأصوات» ص ١٥٣. ومقاييس الأصوات المعيارية هي: (١) i الفرنسية (٢) é الفرنسية (٣) ê لفرنسية.

(٤) a الفرنسية. (٥) e الفرنسية (٦) e الألمانية. (٧) o الفرنسية. (٨) u الألمانية.

انظر الأصوات اللغوية، ص ٣٥. التجويد والأصوات، ص ٣٧.

٧- انظر الأصوات اللغوية ص ٤٠.

٨- انظر سرّ صناعة الإعراب ص ٥١. والأشباه والنظائر ١٨٩/١.

٩- انظر سرّ صناعة الإعراب ص ٥٢.

١٠- انظر الأصوات اللغوية ص ٤٠.

ويمائل نطق الكسر المشوب بالضم صوت «u» الفرنسي.

وأما الضمة المشوبة بالكسرة فنحو قولك في الإمالة: مررت بمذْعُور وهذا ابن بُور، نحوت بضمة العين والباء نحو كسرة الراء. فأشتممتها شيئاً من الكسرة. وكما أنَّ هذه الحركة قبل هذه الواو^(١) وليست ضمة محضة ولا كسرة مرسلة، فكَذلك الواو أيضاً بعدها هي مشوبة بروائح الياء، وهذا مذهب سيبويه وهو الصواب^(٢).

ويمائل نطق الضمّ المشوب بالكسر صوت «u» الفرنسي^(٣).

وأما الشين التي كالجيم فهي التي يقلّ تفشيها واستطالتها، وتراجع قليلاً متصعدة نحو الجيم^(٤)، وهي صوت نظير الشين الأصلية ولكنّه مجهور، وتسمعه عند النطق بكلمة «مشغول» يستعمله أهالي سوريا في نطقهم للجيم العربيّة، وهو نوع من الجيم الكثيرة التعطيش^(٥)، وكقولهم: أجدّق في أشدّق^(٦)، لأن الدال حرف مجهور شديد، والجيم مجهور شديد، والشين مهموس رخو، فهي ضدّ الدال بالهمس والرخاء، فقربوها من لفظ الجيم، لأن الجيم قريبة من مخرجها وموافقة للدال في الشدة والجهر^(٧).

وأما الصاد التي كالزاي فهي التي يقلّ همسها قليلاً، ويحدث فيها ضرب من الجهر لمضارعتها الزاي، وذلك نحو قولك في يَصْدُر: يَصْدُر (مشوبة بصوت الزاي) وفي قَصْد: قَصْد^(٨) (مشوبة بصوت الزاي). ومن العرب من يخلصها زايًا، فيقول: يَزْدُر، وَقَزْد. ومن أمثال العرب: «لم يحرم من قَزْد له» أي: من فصد له^(٩). فلما سكنت الصاد ضارعوا بها الدال التي بعدها، بأن قلبوها الى أشبه الحروف بالدال من مخرج الصاد، وهى الزاي، لأنها مجهورة كما أن الدال مجهورة، فقالوا: «قَزْد» فإن تحركت الصاد لم يجز فيها البدل، ونحو ذلك: صَدَرَ، وَصَدَفَ، لا تقول فيها زَدَرَ، ولا زَدَفَ، وذلك أن الحركة قوّت الحرف وحصّنته فأبعدته من الانقلاب. فإن وقعت الصاد قبل غير الدال لم يجز ذلك فيها^(١٠).

١- يظن ابن جني أنّه يوجد حركة على الحرف الذي قبل المد، والصحيح أن حركة الحرف اذا تبعه مدّ نفس المدّ.

٢- انظر سرّ صناعة الإعراب ص ٥٣. والأشباه والنظائر ١/ ١٨٩.

٣- هذا الصوت الفرنسي ينطق في مرحلة بين صوت الكسرة والتي يماثلها في الأصوات المعيارية الصوت الأول «i» الفرنسي. وصوت الضمة والتي يماثلها في الأصوات المعيارية الصوت الثامن «u» الألماني. أو «uo» الفرنسي.

٤- انظر سرّ صناعة الإعراب ص ٥٠.

٥- انظر الأصوات اللغوية ص ٧٧.

٦- انظر المبدع ص ٢٥٦. وانظر شرح المفصل ١٠/ ١٢٧.

٧- انظر شرح المفصل ١٠ / ١٢٧.

٨- وفي شرح المفصل ١٠/ ١٢٧ كتب فوق الصاد عند يَصْدُر وقَصْد والصراط حرف الزاي، دلالة على أنه يجب قراءتها بإشمام الزاي.

٩- انظر سرّ صناعة الإعراب ص ٥٠.

١٠- انظر سرّ صناعة الإعراب ص ٥١.

وقد قرئ الصراط المسقيم بإشمام الصاد الزاي، وهي قراءة حمزة وعن أبي عمرو فيها قراءات منها الصراط بين الصاد والزاي، فيشرب الصاد صوت الزاي حتى توافق الظاء في الجهر، لأن الصاد مهموسة والطاء مجهورة فيبينهن تناف وتنافر، فأشربوا الصاد صوت الزاي، لأنها أختها في الصفير والمخرج وموافقة للطاء في الجهر، فيتقارب الصوتان ولا يختلفان^(١). هذه أحوال الحروف الستة التي هي فروع مستحسنة.

وهناك ثمانية أحرف لاحقة مستقبحة، ولا يؤخذ بها في القرآن الكريم ولا في الشعر، ولا تكاد توجد إلا في لغة ضعيفة مردولة غير متقبلة، وهي: الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالکاف، والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء، والظاء التي كالثاء، والباء التي كالفاء، ولا يصح أمر هذه الحروف إلا بالسمع والمشاهدة^(٢).

أما الكاف التي بين الجيم والكاف: فللكاف نظير مجهور هو الجيم القاهرية التي نسمعها في اللغة العبرية والفارسية، وهو صوت سامي شائع في معظم اللهجات السامية، وهذا الصوت لا يفرق عن الكاف في شيء سوى أن الجيم مجهورة والكاف مهموسة، ولكن انفصال العضوين في الجيم القاهرية فجائي، وهي لهذا أكثر شدة من الكاف^(٣).

وهذا الصوت في لغة أهل اليمن مشهور، يقولون في جمل، كمل، وفي: رجل، ركل. وهي في عوام أهل بغداد فاشية شبيهة بالثغة. والجيم التي كالکاف كذلك وهما شيء واحد، إلا أن أصل أحدهما الجيم وأصل الأخرى الكاف ثم يقبلونهما إلى هذا الحرف الذي بينهما^(٤).

والكاف العربية تساوي في نطقها صوت «k» الفرنسي، ويناظرها صوت «g» الفرنسي^(٥). فالكاف التي بين الجيم والكاف تنطق مثل الصوت الفرنسي «g».

أما الجيم التي كالکاف: فقد تطوّرت الفصيحة إلى الجيم القاهرية ونسمعها في السنة القاهريين خالية من التعطيش، وهي جيم أقصى الحنك ولم تزد أن تدرجت بمخرجها إلى وراء قليلا وقربت من أقصى الحنك، وبهذا زادت شدة وانقطع ما يسمى عادة بالتعطيش.

١- انظر شرح المفصل ١٠/١٢٧.

٢- انظر الكتاب ٤/٤٣٢، المتع ٦٦٥، سر صناعة الإعراب ص ٤٦، وشرح المفصل ١٠/١٢٧.

٣- انظر الأصوات اللغوية ص ٨٤.

٤- انظر جمهرة اللغة ٥/١، والمتع ص ٦٦٥، وشرح المفصل ١٠/١٢٧.

٥- انظر الأصوات اللغوية، د. الخولى ص ٢٠٥.

وذكر ابن دريد وابن يعيش وغيرهما^(١) أن الجيم التي كالكاف لغة في أهل اليمن ويقولون في جمل: كمل، وفي رجل: ركل، وأن مثلها الكاف التي بين الجيم والكاف^(٢).

والجيم الفصيحة قريبة في نطقها من صوت «ج» الفرنسي، والجيم التي كالكاف قريبة من الصوت الفرنسي «g»^(٣).

أما الجيم التي كالشين: فهي تكثر في الجيم الساكنة إذا كان بعدها دال أو تاء، نحو قولهم في: اجتمعوا والأجدر: اشمعوا والأشدر، فتقرب الجيم من الشين لأنها من مخرج واحد إلا أن الشين أبين وافشى.

وقد جعلت الشين التي كالجيم من الأصوات الفرعية المستحسنة، والجيم التي كالشين من الأصوات المستهجنة لأنه كره فيه الجمع بين الشين والدال في مثل: «أشدر» لما بينهما من التباين، لأن الدال حرف مجهور شديد والجيم مجهور شديد، والشين مهموس رخو، فهي ضد الدال بالهمس والرخاوة، فقرّبوها من لفظ الجيم لأن الجيم قريبة من مخرجها موافقة الدال في الشدة والجهر أما إذا كانت الجيم مقدّمة على الدال في مثل: «أجدر» و«اجتمعوا» فليس بين الجيم والدال من التنافي والتباعد ما بين الشين والدال^(٤).

والجيم التي كالشين هي الجيم الشاميّة، فأهل الشام وبعض المغاربة ينطقون بها كثرة التعطش خالية من الشدة، خالصة الرخاوة، ومخرجها من وسط الحنك، بينهما الجيم الفصيحة، مزدوجة من الشدة والرخاوة، فيها من الصفتين، ومخرجها من وسط الحنك^(٥).

وأهل لبنان في لهجتهم يقولون: «تشاج» في «دجاج»^(٦) ويرمز لهذا الصوت باللغات اللاتينية بالحرف «Z»^(٧).

أما الضاد الضعيفة، فهي لغة قوم اعتاصت عليهم، فربّما أخرجوها «ظاء» وذلك أنهم يخرجونها من طرف اللسان وأطراف الثنايا، وربّما راموا إخراجها من مخرجها فلم يتأتّ لهم، فخرجت بين الضاد والظاء^(٨).

١- انظر جمهرة اللغة ٥/١. وشرح المفصل ١٠/١٢٧.

٢- انظر الكاف التي بين الجيم والكاف سابقا.

٣- انظر الأصوات اللغويّة د. الخولي ص ٢١١.

٤- انظر شرح المفصل ١٠/١٢٧، والممتع ص ٦٦٦.

٥- انظر الأصوات اللغويّة ص ٧٨.

٦- حكاية عن سماع صاحب البحث لبعض مناطق لبنان - فهو لبناني - وانظر الأصوات اللغويّة د. الخولي ص ٢١١.

٧- انظر الأصوات اللغويّة د. الخولي. ص ٢١١.

٨- انظر شرح المفصل ١٠/١٢٧. وشرح شافية ابن الحاجب ٣/٢٥٦.

ويظن محقق كتاب المبدع أنّ الصاد الضعيفة هي التي تقترب في نطقها من الثاء، فتحل محلها عند بعض العرب فيقولون في: «اثرُدْ له» اضرُدْ له^(١). والظاهر أنّ الذي ذكرته هو أقرب إلى الصواب. ويقوّي هذا الاتجاه ما قاله الدكتور إبراهيم أنيس: ولا يزال العراقيون حتى الآن وبعض البدو ينطقون بنوع من الصاد يشبه الى حد ما «الطاء»^(٢) وعندما أفاض الكلام عنها ذكر قول ابن يعيش السابق، وأن كلامه فيه بعض الوضوح، ويبرز أن سيبويه لم يحددها، ويبين أن سيبويه نفسه يعترف عندما يتحدث عن الحروف الغير مستحسنة أنه لا يجدي كثيراً، وأنها لا تتبين إلا بالمشافهة^(٣).

أما الصاد التي كالسين، كقولهم في «صبغ»: «صبغ» وليس في حسن ابدال الصاد من السين، لأن الصاد أصفى في السمع من السين، وأصغر في الفم^(٤)، ولعلّ سبب هذا الإبدال أن صوت الصاد يشبه السين في كل شيء، سوى أنّ الصاد أحد أصوات الإطباق، فالصوتان رخوان مهموسان ومخرجهما واحد، من طرف اللسان مع فويق الثنايا العليا، ولكن عند النطق بالصاد، يتخذ اللسان وضعاً مخالفاً لوضعه مع السين، إذ يكون مقعراً منطبقاً على الحنك الأعلى، مع تصعد أقصى اللسان وطرفه نحو الحنك ومع رجوع اللسان الى وراء قليلاً ككل الأصوات المطبق^(٥) وغالب اللهجات العربيّة الحديثة تفقد هذا الإطباق مما يجعل الصاد نطقها أشبه بالسين.

ويمكن ملاحظة أن الصوت المفخّم «ص» يقابله صوت مرقق هو «س» والصوت المفخّم يتأخر عن مكان نطقه قليلاً الى وراء عن مكان نطق نظيره المرقق، نظراً لارتفاع مؤخر اللسان نحو الطبق وتراجع نحو الحلق، الأمر الذي يؤثر على مدى رأس اللسان، فنلاحظ أن «ص» متأخرة من حيث مكان النطق عن «س»^(٦). ولهذا تكون الصاد التي كالسين متقدمة عن مكان الصاد الأصلي فاقدة للتفخيم.

أما الطاء التي كالتاء، فإنها تسمع من عجم أهل العراق كثيراً، نحو قولهم في «طالب» تالب، لأن الطاء ليست من لغتهم، فاذا احتاجوا الى النطق بشيء من العربية فيه طاء تكلفوا ما ليس في لغتهم فضعف لفظهم بها^(٧).

١- انظر المبدع ص ٢٥٦. وهذا الكلام عن حاشية ابن مبرّمان. انظر شرح شافية ابن الحاجب ٢/ ٢٥٦. و المتع ص ٦٦٦.

٢- انظر الأصوات اللغويّة ص ٤٩.

٣- انظر الأصوات اللغويّة ص ٥٢.

٤- انظر شرح المفصل ١٠/ ١٢٨.

٥- انظر الأصوات اللغويّة ص ٧٥-٧٦.

٦- انظر الاصوات اللغويّة د. الخولي ص ٢١٥.

٧- انظر شرح المفصل ١٠/ ١٢٧.

والسبب في ظهور هذا الصوت عند الكلام عدم استطاعتهم اطباق لسانهم مع الصوت، اذ التاء والطاء صوتان شديداً مهموسان، ومخرجهما التقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا، غير أنّ الطاء أحد أصوات الاطباق، فاللسان يختلف وضعه مع الطاء عن وضعه مع التاء، فاللسان مع الطاء يتخذ شكلاً مقعراً منطبقاً على الحنك الأعلى ويرجع الى الوراء قليلاً^(١). وهذه اللهجة سائدة الآن في معظم البلاد العربية، ولا يكاد يظن اليها أحد أو يعترض عليها^(٢).

اما الظاء التي كالتاء، فإن الأعاجم يقولون في «ظلم»: «تلم»^(٣). والطاء والتاء من الأصوات اللثوية ومخرجهما واحد من بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا، والطاء: صوت مجهور رخو، بينما التاء: صوت مهموس رخو. وهذا الصوت يختلف عن الظاء في الوضع الذي يأخذه اللسان مع كل منهما، فعند النطق بالطاء ينطبق اللسان على الحنك الأعلى آخذاً شكلاً مقعراً^(٤)، فهو من أصوات الإطباق، ولأنّ صوت الطاء غير موجود في الصوت الأعجمي فينطقونه تاءً.

اما الباء التي كالفاء، فهي كثيرة في لغة الأعاجم والفرس، نحو قولهم في «بور»: «فور»^(٥). وأحياناً يغلبون الباء على الفاء^(٦).

وكان الذين تكلموا بهذه الحروف المسترذلة قوم من العرب خالطوا العجم فتكلموا بلغاتهم^(٧)، غير مأخوذ بها في القرآن العزيز ولا في كلام فصيح^(٨). بل هي خلاف الفصيح، وحُوشِيّ الكلام. وحُوشِيّ الكلام ووحشيّة واحد. ووحشيّة: غريبه^(٩).

والوحشيّ: هو من الكلام ما نَفَرَ عنه السمع. وإذا كانت اللفظة خشنة مستغربة لا يعلمها إلا العالم المبرز والأعرابيّ القحّ فتلك وحشيّة^(١٠).

وقد كانت العرب تتخير للفتها الأفصح «وكانت قريش أجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً وأبينها إبانة عمّا في النفس»^(١١)

١- انظر الاصوات اللغويّة ص ٦١ - ٦٢.

٢- انظر الأصوات اللغويّة ص ٥٢.

٣- انظر شرح المفصل ١٠/١٢٨. والمتع ص ٦٦٧.

٤- انظر الأصوات اللغويّة ص ٤٧.

٥- انظر شرح المفصل ١٠/١٢٨.

٦- انظر المبدع ص ٢٥٦.

٧- انظر شرح المفصل ١٠/١٢٨.

٨- انظر شرح المفصل ١٠/١٢٧.

٩- انظر البلغة ص ١٦٥. والصاح ٣/١٠٠٢. (وح ش)

١٠- انظر العمدة ٢/٢٦٥ - ٢٦٦.

١١- انظر الإصباح في شرح الإقتراح ص ٩٠. والبلغة ص ١٥٩.

وتخيّر العرب للفصحى جعلهم يحدّدوا القبائل التي تؤخذ عنها اللغة «فانه لم يؤخذ عن حضريّ قط ولا عن سكّان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم، فإنّه لم يؤخذ لا من لحم ولا من جذام، فإنّهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط، ولا من قضاة، ولا من غسّان، ولا من إياد، فإنّهم كانوا مجاورين لأهل الشام وأكثرهم نصارى يقرؤون في صلاتهم بغير العربيّة، ولا من تغلب والنمر فإنّهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر، لأنّهم كانوا مجاورين للنبط والفرس، ولا من عبد القيس، لأنّهم كانوا سكّان البحرين، مخالطين للهند والفرس، ولا من أزد عمان، لمخالطتهم للهند والفرس، ولا من أهل اليمن أصلاً، لمخالطتهم للهند والحبيشة ولولادة الحبيشة فيهم...»^(١) الخ.

وقد شدد العرب منذ عهد الصحابة في كتابة اللغة ورسمها، وكان ابن مسعود يستحبّ أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مضر^(٢). وقال عمر: «لا يملئ في مصاحفنا إلا غلمان قريش وثقيف»^(٣). وقال عثمان: «اجعلوا المملي من هذيل والكاتب من ثقيف»^(٤).

يتبع في العدد القادم

١- انظر الإصباح في شرح الإقتراح ص ٩١ - ٩٢. والبلغة ص ١٦٠. عن رسالة الحروف لأبي نصر الفارابي.

٢- انظر البلغة ص ١٥٧. والصاحبي ص ٤١.

٣- انظر البلغة ١٥٨. والصاحبي ص ٤١.

٤- انظر البلغة ص ١٥٨. والصاحبي ص ٤١.